الأب إميل الحَاج البُولِسيّ

خوري أرس

القدِّيس جَان – مَار فيَانّيه

(1859 – 1786)

St Jean – Marie VIANNEY

Curé d’Ars

(1786 – 1859)

((سلسة الشهود))

مقدّمة

((خوري أرْس)) هو الأب القديس جان ماري فانّيه ذلك الكاهن الذي رذله البنّاؤون حيناً فصار رأساً للزاوية . دخل الإكليريكيّة كبيراً فما عتّم أن رُفض لضآلة زاده العلميّ ، لكنّ تقواه ومحبّته للعذراء و تضحيته ألجأت رؤساءه إلى قبوله ثانية .

و عُيّن في ما بعد خوري قرية أر الصغرة الضائعة في أبرشيّة ((ليون)) الفرنسيّة ، المتردّية في وهدة العادات المتوارثة المنحرفة ، فعمل على إصلاحها بحاته الزاهدة القشفة وتفانيه العجيب و ابتكاره في حقل الاجتماع تحت هدي الروح القدس ، فانقلبت أرس رأساً على عقب ، و

أضحت مثال الرعايا في الازدهار الروحيّ والزمنيّ ، واهتزّت فرنسا ، بل العالم المسيحيّ بأره ، لمرأى الفضيلة الساحر الفتّان !..

بعد حفلة من حفلات العماد في قرية دارديلّي الفرنسيّة ، من أبرشيّة مدينة ليون ، انتص نائب الخوري بلانشون في السكريستيّا ، و استلّ ريشة الإوزّ وغمسها في المحبرة ، وكتب على صفحة من صفحات السجلّ الراعويّ :

((اعتمد جان ماري فيانّيه ، الإبن الشرعيّ لماتيو فيانّيه ، و لماري بلوز زوجته ، في الثامن من أيّار ، يوم ميلاده ، سنة 1786 ، وكنت أنا الكاهن المعمّد ، النائب الموقّع أدناه ، عرّاب المعتمد عمّه ، جان ماري فيانّيه المقيم في دارديلّي ، و عرّابته فرانسواز مارتينون ، زوجة العرّاب المذكور ، وكلاهما ، اعتماداً على أجوبتهما ، أُمّيان بلا ثقافة)) .

و ردّد النائب في داخله : ((بلا ثقافة !.. وهذا ما تبيّن لي عندما دعوتّهما إلى توقيع شهادة المعموديّة ، فحار لبّهما و اضطربا ، ثمّ قدّما إبهامهما ليبلّاه بالحبر ... آه ! كان على سيادة المطران أن يعيّني في إحدى المدن العامرة ، فينفسح لي المجال للإدلاء بمهارتي و ثقافيّ ، بدل أن يزجّ بي بين قوم جاهلين ...

((الأحد الفائت كنت أعظ ، وقد بلغت مني الحماسة والفصاحة شأواً بعيداً ، فما العرّاب جان ماري فيانّيه مسترسل في النوم ، وكأنه في دنيا غير دنيانا)).

و إذا بالباب يقرع ، فيدخل خوري الرعيّة ((جاك ري)) بشوش الوجه ، مبتسم الثغر ، بعينيه الوادعتين ، فيحيّي ، ثم يسحب علبة العاطوس من جيبه ، و يقدّمها لنائبه قائلاً : ((درهماً فتشرق أساريرك)) .

- لا أعرف استخدام هذا التنباك .
- أنصحك بالتدرّب عليه ، فيعينك على تبديد الضجر ، و إدخال النشوة الطروب إلى دماغك . ولكن ما بك ؟ أراك حليف الهمّ ، تساورك الهواجس ...
- كلاّ ... همّي لا يزال صغيراً ، و آمل التغلّب عليه يوماً .
- فهمت . أنت تعبان في هذه القرية ، اذ تشعر أنك على هامش الحياة ... أنت مثقّف في محيط من الفلّاحين و رعاة القر والماعز ، تأسف على ضياع علمك و توقّد ذكائك .
- هل حصّلتُ كلّ هذه العلوم لأكون بين قوم جاهلين أُميّين ؟
- أنا كذلك متعلمّ ، ومع هذا فلا آنف من معايشتهم ، حتى أهديهم سواء السبيل .
- إلا أنني ، يا حضرة الخوري ، أشعر بانجرافي في تيّارهم شيئاً فشيئاً . سوف يغشاني الجهل مع الزمان ، و أصير واحداً منهم ، فلّاحاً بين الفلّاحين ، جاهلاً مخشوشناً و ...
- على رِسْلِك ، و هوّنْ عليك . ليسوا جهلة إلى هذا الحدّ . إنهم يتقنون المحبةّ الخالصة ، النزيهة من كلّ غشّ و مواربة ورياء ... وهم ينعمون بالتقوى والفضيلة ومخافة الله .
- وإني لأفضّلهم على أهل البلاط الغائصين في الترف والنعيم ، الذين يلهجون بالحكمة والفلسفة والعلوم العصريّة ، ولكنّ داخلهم مفعم بالمخاتلة والكذب والكبرياء ...
- عند ذاك تنهّد الخوري جاك ري عميقاً ، ثم دسّ في أنفه نشْقة من العاطوس ، وتاع في كثير من الهدوء والإشراقة المحبّبة : ((كم يجْدر بنا ، يا نائي ، أن نهبط علمنا إلى مستوى هذا الشعب البسيط ، فنقدّم لهم الحقائق الأزليّة العويصة في قالب يوائم مزاجهم و أدمغتهم ، وأن نفيد من الحسنات الروحيّة والأدبيةّ التي بها ينعمون ، و نشذّب من نفوسهم الأغصان اليابسة ، و نقتلع العوسج والعلّيق والقندول ، تلك المفاسد

التي قد تعرّش في داخلهم . وعندئذ يتسنّي لنا أن نردّد مع القديس بولس : ((صرت كُلاً للكلّ حتى أربح الجميع ...

((رافقت حياتهم طوال خمس و ثلاثين سنة فاستفدت كثيراً من صلاحهم و برّهم ، وكنت سعيداً هانئاً ... ولكن ما لنا ولهذا الحديث ، فهيّا معي إلى بيت فيانّيه ، فنهنّئهم بالمولود الصغر وبالمعموديّة)) .

ومضيا معاً . وما إن بلغا البيت حتى ألْفياه غاصّاً بالأهل والأقارب ، و كلّهم في نشوة من المرح والحبور ، يتشاطرون بهجة العيد ويتبادلون الأنخاب . فهلّلوا جميعهم لدخول الكاهنين ، و قدّموا لهما كأسين من النبيذ المعتّق .

ولّما استقرّ بهما مجلسهما ، طفق الحشْد الغفير يشرب نَخْب الخوري ونائبه ، و يفدّيهما بمهجته ، والأبوان يبادلانه الأدعية . ودار الحديث عن الموسم المقل والغلال والماشية والحقول ، فبدا الخوري مجليّاً في هذه المضامير كلّها ، يجول فيها جولة الخبير الحاذق ، مبدياً آراءه بثاقب بصيرة وبُعد نظر ، فنال إعجاب الحاضرين أجمعين ، ولم يقْوَ العرّاب جان ماري إلّا أن يصرّح : ((لقد مازجْت حياتنا و اندمجت بروحنا فغدوت واحداً منّا ، وامتلكت إعجابنا وحبّنا)) .

فأعقب أخوه ماتيو فيانّيه : ((ومع هذا فقد بق كاهناً ، يمثّل المسيح في أقواله وأعماله)) .

فأجاب الخوري باسماً و رامقاً نائبه بنظرة معبّرة : ((شكراً للثناء ، فأنا لا أستحقّه ، ولا أخفي عليكم أن نائبي قد جعلني من عدادكم منذ حين)) .

ثمّ استأذنا الجمع وجالا في الأقبية السفليّة ، يحفّ بهما أبو الأسرة وبعض الأقارب ، وسرّحا الطرف في الأهراء والماشية و خوابي النبيذ، فكان للخوري جاك ف كلّ موقف تعليق و تشجيع .

وبعد ذلك صعدا إلى العلّيّة و عرّجا إلى غرفة الأمّ ماري ، فاستقبلتهما بحرارة و ابتهاج ، شاكرة للنائب احتفاله بالمعموديّة ، وسائلة الخوري و نائبه البركة والصلاة .

فصليّا من أجل الأمّ وطفلها الصغير . وعندما رسما شارة الصليب على جبهته وقلبه ، أطلق صيحة فضّيّة عذبة ، فقال الخوري : ((قد يصير في المستقبل كاهناً يسبي القلوب بصوته الرخيم وعظاته الوضّاحة النافذة)) .

فأردفت الأمّ ، و قد التمعت عيناها ببريق الأمل المتومّض الخلّاب : ((تلك أمنيتي ، و إني نذرته منذ أمد عيد للربّ القدوس)) ! ..

* * *

وعاد الكاهنان أدراجهما إلى الأنطش ، فقال الخوري لنائبه الجديد الشابّ : ((ما رأيك الآن أهل دارديلّي)) ؟

- ليسوا بجاهلين ! فرأس الحكمة والعلم مخافة الله .
- والمحبّة الصادقة ! ..

بعض هموم من سنة 1790 إلى سنة 1791

كانت الأمّ ماري فيانّيه منهمكة في تغسيل طفلها جان ماري ، وقد وضعته في طشت خشبيّ ، وهو بين يديها خافق خفقان المورقة ، يطلق صيحات متتالية ناعمة ، والمطر منهمر هتّان بلا انقطاع يلطم النوافذ بعنف حتى ليكاد يحطهما شعَاعا ...

و إذا بالباب يُقرع ، فيدخل البائع المتجوّل أندريه ليلو ، وعلى حقوبه صندوق البضاعة ، وهو يرشح ماء من رأسه حتى أخمص قدميه ، فيحيّي مقضقضاً بأسنانه ، ثم يقول في كثير من العياء : ((كأساً من النبيذ يا سيّدتي ، فأفرغ في داخلي الدفء والانتعاش)) .

- أدخل يا أندريه . أراك تعبان مقروراً . هيّا اقترب من النار فتنشّف ثيابك . ولسوف أنيلك كأساً من الحليب الساخن .
- ولكن ابنكِ يصيح كذلك مستغيثاً من الرطوبة .
- إلّا أنه لا يطلب النبيذ ، بل الحليب فحسب . فتضاحك كلاهما ...

و أعقبت الأم ، وقد فرغت من تغسيل ابنها ، فمضى يلهو في الغرفة المجاورة : ((ماذا وراءك من أخبار يا أندريه)) ؟

- قادم أنا من مرسيليا . فالقوم هنالك في نشوة و تدفّع ، كأمواج البحر متكبكبون حول تمثال الحريّة في الساحة العامّة . نصبوا التمثال ، وهو يحمل بيسراه حربة تنتهي بقبّعة حمراء ، دلالة على الثورة ، وبيمناه إكليل الظفر والفلاح .

وهنا امتشق أندريه عكازته ، وكأنها الحربة ، فألقى على مؤخرّها قبعّته المبلولة ، و استلّ بيمينه قالب الحلوى من على الرفّ ، وانتص مقلّداً وقفة التمثال ، في مهابة وجلال ... فلم تتمالك الأمّ لدى هذا المشهد الطريف عن ضبط نفسها ، واسترسلت في ضحك مستفيض وقالت : ((يا لك من هازل خفيف الظلّ . ولكن ، ما خَطْب هذا التمثال في مرسيليا وما شأنه)) ؟

- لا تنسي أن البارحة كانت الرابع عشر من تموز ، ذكرى سقوط الباستيل في باريس السنة الفائتة ، أي سنة 1789 ، إبّان الثورة الفرنسيّة ، يوم هاجم الفرنسيّون

الأحرار ذلك الحصن ، موئل الملكيّة وجن كبار القوم ورمز المظالم والعبوديّات ، فدكّوا بناءه الشامخ وأعلنوا الدستور الجديد .

- لا أفهم ما تقول . ماذا تعني بالدستور ؟
- أجل أجل . أنت لا تدركين مطاوي السياسة وتشعّباتها ، وإنّما خبيرة أنت بالعطور والحرير و وسائل التزيين .

قال هذا ، وفتح صندوقه الضخم فإذا به يميد بنفائس البضاعة و طرائفها . فاستوقفته الأم ماري : ((لا أريد شيئاً ممّا ذكرت . ألديك ما يستهوي أسرتنا)) ؟

- فهمت ما تبغين . أنظري هذا التمثال للعذراء القديسة . كيف تجدينه ؟
- رائعاً . كم فرنكاً تريد ؟
- اثنين .
- حسن . رضيت بالصفقة .

وتناولت الأم ماري التمثال بحنان كثير ، و قبّلته . ثمّ وضعته على المنصّة ناحية .

وما هي إلا دقائق حتى علا صياح جان ماري وأخته الصغيرة مرغريتا من الغرفة مصحوباً بالعويل والنحيب . فابتسم أندريه وقال : ((الموسيقى لا تخلو من بيتك يا سيّدتي)) .

- إنها أعذ ممّا تظنّ .

وفتحت الأم باب الغرفة فألْفت جان ماري متشبثاً بمسبحة ضخمة أطول منه ، وأخته مرغريتا البالغة من العمر سنة ونصفاً تشدّ طرف المسبحة ، والدموع تفيض من مآقها ... فلما رأى جان ماري أُمّه تشجّع واجتذب المسبحة عنف ، فهوت مرغريتا على الأرض

مطلقة صرخات تنمّ عن الألم والوجد والحرمان ... فالتفتت الأمّ إلى جان ماري قائلة : ((بنيّ ، هل تحبّ يسوع)) ؟

- أجل !
- إذن أرجع المسبحة إلى أختك .

فاضطربت يد الطفل هنيهة ، ثم ما لثت أن امتدّت ودفعت المسحة إلى الصغيرة . فأضاء وجه مرغريتا في الحال ، وعمدت الأم إلى تمثال العذراء الصغير فأهدته إلى ابنها جان ماري قائلة : ((إنه لك ، مكافأة على طاعتك وتضحيتك)) .

- أحقّاً ؟ هو لي ؟
- أجل ! لك ! ..

فاستنارت أسارير الطفل ، وراح يوسع التمثال تقبيلاً ، و يضمّه إلى صدره بشغف .

أمّا أندريه فقد وقف مشدوهاً أمام هذا المنظر الغريب ، والتفت إلى الأمّ مهنّئاً : ((عافاك الله ، سيّدتي ، فقد اكتحلت عيناني اليوم بأصفى أساليب التربية وأرقاها)) .

- شكراً على الثناء . من أُسُس التربية ، يا أندريه ، الطاعة بعيداً عن أجواء الغنج والدلال . فإن توفّرت هذه الطاعة في مناخ الحبّ الواعي الخالص من كل ميوعة و تبذّل ، تسنّى للأبوين الانصراف بكل ارتياح إلى التنشئة الحقّة حسب تعاليم الإنجيل القويمة .

عندئذ استأذن أندريه السيّدة مار فيانّيه ، بعد احتسائه كأس الحليب ، ومضى شاكراً لها ذلك الدرس في التربية المسيحيّة الصِرْف .

ومنذ ذلك النهار لم يغادر جان ماري الصغير تمثال العذراء ، إذ كان يصطحبه إذا ما جلس إلى المائدة أو استسلم للنوم أو تسلّى في الحديقة أو تبع أباه إلى الحقول. وقد

ساعدته أخته البكر كاترين على تحضير هيكل صغير داخل شجرة ضخمة قرب البيت ، فأودعه جان ماري التمثال ، وراح يصرف بعض أوقاته خلال النهار في الصلاة أمام العذراء مريم ، جاثياً أو جالساً ، فتتصاعد صلواته البريئة إلى السماء مستمطرة البركات على كل فرد من أسرته ، وعلى المواشي والحقول والعالم أجمع ، رغم نباحات كلبه ((بلّو)) المتواترة ، يحوم من حوله ويحاول اجتذابه إلى التلهّي .

* * *

في أحد الأيّام ، لاحظت الأمّ ماري فيانّيه اختفاء ابنها جان ماري من البيت ، فبحثت عنه منقّبة في كلّ الغرف فلم تعثر عليه . عندئذ ازداد خفقان قلبها ، وطفق الهمّ والألم يعتصران أحشاءها الوالديّة ، فهرعت إلى الحديقة تنادي جان ماري ، ولكن عبثاً . ثم دخلت مستودع الخشب، وانتقلت من بعد إلى أكداس التبن وراء البيت ، إلى أن انتهت إلى البئر، فألفتها مكشوفة ... لقد أصلحوها البارحة و نُسيت فاغرة الفوهة . فازداد وجيب فؤاد الأم ، ذلك الفؤاد الجزوع الملهوف ، وأطلّت من الفوهة متفحّصة أعماق البئر ، فوجدت الماء صافياً راكداً ، ولا شيء في القعر ينبئ عن وجود ضحيّة .

ولم يبق أمامها سوى الإسطبل . وما إن ولجته حتى عثرت على جان ماري جاثياً بين الثور والحمار ، وقد نصب تمثال العذراء على المعلق، وهام في صلاته ، مردّداً بصوت مرتفع كل ما يعرفه من الابتهالات، حتى الصلاة قبل الأكل وبعده ...

فسُرّي عن الأم قليلاً ، ونادت ابنها ، فثاب إله رشده شيئاً فشيئاً ، والتفت إلى أُمّه . فقالت له بلوعة : ((بحثت عنك يا جان ماري بحسرة و تحرّق ... لماذا لم تخبرني)) ؟

- عذرك أُمّاه . لم يتبادر إلى ذهني أن عملي هذا يثير فيك المخاوف والهمّ .
- ثم وثب جان ماري إلى عنق أُمّه ، فضاع طيّ ضلوعها . أمّا هي فأخذت تردّد : ((ألم ينفطر قلب العذراء مريم ، عندما طانت تبحث والقديس يوسف عن يسوع في شوارع أورشليم ، حتى وجداه في الهيكل بين علماء الناموس ، يفسّر الكتاب المقدس ؟ تُرى ، أيكون الله قد دعا ابني إلى رسالة شبيهة برسالة يسوع)) ؟ ..

و سألها جان ماري : ((هل غاب ضياء المسيح عن سماء نفسي ، من جراء فعلتي هذه ؟))

- لا يا بنيّ . ولكن لا تُعد الكرّة ثانية .
- أعدك يا أمّاه .

* * *

مرّت سنة 1790 زاخرة بأفراحها وآلامها الصغيرة ، والسيّد ماتيو فيانّيه يرى أهراءه تميد بالغلال ، و زوجته يُثلَج صدرها لمشاهدتها أولادها ينمون في الحكمة والنعمة ، وتمور العافية في أبدانهم ، إلاّ أن هموماً جديدة و ويلات هائلة كانت تموج في العالم ولا سيّما في فرنسا: جلس خوري قرية دارديلّي ، الأب جاك ري ، إلى مكتبه مقطّب الجبين، كالح الوجه ، وهو يقرأ رسالة من النائب العالم لأبرشيّة ليون ، ويسحب عبثاً من غليونه الدخان ، فلا يكاد يعبّ شيئاً ، وقد توتّرت أعصابه توتّراً شديداً على غير عادة . وما إن أتى على قراءة آخر كلمة، وأخذت عينه توقيع رئيس أساقفة مدينة ليون ، حتى لاحظ أن غليونه فارغ لا وقود ، فخبطه على الطاولة بانتفاضة فتحطّم متناثراً بشظاياه .

وذهب في الحال إلى غرفة نائبه ودفع إليه الرسالة . ثم هوى على الكنبة متهالكاً ينتظر الجواب .

ولمّا فرغ النائب بلانشون من القراءة ، علت قسماته سحابة من الهمّ ، وبدا ذاهلاً ساهم الوجه . أخيراً قال : ((ما العمل)) ؟ فأجابه الخوري: ((ما العمل)) ؟

- يطلب النائب العامّ للأبرشيّة أن نُقسم فنمنح الولاء والثقة للثورة وللدستور الجديد .
- الثورة الفرنسيّة شائقة جذابة بشعارها المثلّث ((حرية – مساواة – إخاء)) ، بيد أنها ترتكب في بدايتها لتحقيق هذا الشعار مظالم فادحة لا تحتمل . أمّا الدستور ، فهل بإمكانك ، يا نائب ، أن تطلعني على ما ينصّ في مجالات الكنيسة ؟

فابتسم النائب ابتسامة الرضى ، معلّلاً النفس بإلقاء درس على خوريه ، وقال : ((تستولي الدولة على ممتلكات الكنيسة وتمنح الإكليروس الخاضع للثورة أجوراً معينّة : للكاهن ألفاً و مئتي فرنك ، مع أنطش وحديقة ، وللأسقف عشرين ألفاً ، ولرئيس أساقفة باريس خمسين ألفاً . ويُخفّض عدد الأبرشيّات من مئة وستّ وثلاثين إلى ثلاث وثمانين وحسب .

((ولا يتدخّل قداسة البابا إلاّ في الأمور العقائديّة ، فلا موافقة من قِبَله إذن على تعيين الأساقفة . أما أفراد الإكليروس الذين يأبون التشيّع للثورة وللدستور ، فإنهم يخلعون من مناصبهم ، فتعيّن ((الجماعة الوطنيّة)) الثوريّة أعضاء مكانهم ، يوالون الثورة ويدعمونها بتعاليمهم .

- وما موقف قداسة البابا بيّوس السادس من هذا الدستور ؟
- إلى الآن لم يُبدِ قداسته رأيه .
- إذن ما العمل ؟

- لت أدري .
- لو كنتَ خوري القرية ، فماذا ...
- لو كنت خوريها لاتّبعت هدي ضميري .
- وما هي أضواء هذه الهداية حتى نستنير بها ؟
- لا أُبرزها إلاّ إذا كنت خوري القرية .
- يا لك من سياسيّ محنّك !

وظلّ الخوري ((جاك ري)) متأرجحاً بين رفض الدستور الجديد وقبوله ، تتنازعه رغبات و تنفّره مخاوف ، إلى أن أصدر قداسة البابا رأيه في الثورة شاجباً دستورها التعسّفيّ ، وموقفاً عن الخدمات الكهنوتيّة كل رجال الإكليروس الموالين لذلك الدستور ، ما لم يرعَووا عن غيّهم . فلم يرَ الخوري دّاً ، والحالة هذه ، من الذهاب إلى الصرح الأسقفيّ في ليون والمثول أمام النائب العام ، وإعلان انتباذه لمقرّرات الثورة المجحفة ، و إبداء ولائه التامّ للكرسيّ الرسوليّ .

فاستُقبل مسعاه هذا ببرودة جليديّة ، و عُزل من منصبه .

وظلّ الخوري المخلص الغور يزاول واجباته الكهنوتيّة في السرّ ، مدّرعاً الظلام ليلاً ، و متخفيّاً في الغابات و الأقبية والسراديب نهاراً ، وهو يتّخذ له كل يوم زيّاً جديداً ، إلى أن أحاق به الخطر ، وأمسى على قيد أُنْمُلَة من إلقاء القض عليه . فاعتمد عند ذاك الفرار إلى إيطاليا .

وكذلك الناشب بلانشون ، فقد مضى بقدم ثابتة إلى النائب الأسقفيّ العامّ واتّخذ موقف خوريه . فلم تفلح في إضعاف عزيمته الماضية كلّ الوعود المغرية من أجر دسم ومعاملة طيّبة و رعيّة جديدة تزدهي بالمؤمنين المثقّفين ، فتفسح له المجال للإدلاء بمعارفه

وفصاحته ... أخيراً قال له النائب العامّ متجهمّاً مقطّب الجبن : ((لا يليق بكاهن أن يجافي الدولة و يتنكّر لإصلاحها المحيي)) .

فأجابه الأب بلانشون دون مواربة ولا اضطراب : ((يجفو علّ أنا الكاهن أن أرى رئيس الأساقفة ((لاموريت)) الذي نصبّته الثورة على الأبرشيّة خلفاً لسلفه البطل المعتصم بهدي ضميره ، يناهض قرار قداسة البابا بيّوس السادس ، و يتشيّع لمبادئ الدستور الهدّامة بمعاضدة نائبه العامّ)) ! ..

وخرج النائب بلانشون من المطرانيّة مرتاح الضمير ، مشرق المحيّا ، وراح يطوي الأيّام والسنين في الخفاء و التستّر ، فقيراً مُعدماً ، على شاكلة المسيح معلمّه الإلهيّ .

وكان أن عينّت ((الجماعة الوطنيّة)) خورياً جديداً لقرية داردِيلّي منحازاً للثورة يبثّ مرآه الخشونة والقسوة ، بخلاف ما اتّصف به سابقه الأب ((ري)) من فرح وسلامة طويّة وطيب معاشرة ، فلم يكسب ثقة الشعب و ودّه واحترامه .

* * *

من سنة 1791 إلى سنة 1792

جلست السيّدة ماري فيانّيه ذات يوم من تشرين الأوّل في حدقة المنزل ، تحت شجرة وارفة الظلال ، ترفأ ثوباً ، وقد قبعت بحذائها ابنتها البكر كاترين البالغة من العمر اثنيّ عشرة سنة ، تحوك كنزة ، والهمّ بادٍ على محيّاها ، ودمعتان كبيرتان تأتلقان على خديّها . فناشدتها أُمّها : ((ما بك يا كاترين ؟ أرى سّراً دفيناً في داخلك ، و آلاماً ، وهواجس)) .

- لا أجرؤ يا أُمّاه أن أُفاتحك بما يجول في خاطري .
- هل من سرّ يُخفى على الأمّ ؟

- لا . ولكن ...
- ولكن ماذا ؟
- أيجوز لنا أن نشهّر الكاهنَ ، أبانا الروحيّ ؟
- هاتي أخبريني .
- أرى أنّ كاهننا ليس تقيّاً كسلفه الأب ((ري)) .

فهو لا يحبّ السيّد المسيح كما يحب . ما يبدر منه من حركات و أقوال وأعمال يؤكّد صحّة ما أقول .

- ماذا ؟ أهكذا يليق بابنة لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها أن تنتقد كاهن الربّ الذي مُسح جبينه و يداه بالميرون المقدّس ؟ أهذا ما لقنّك إيّاه أبواك ؟
- كنت على يقين أنني سأثير الإزعاج في داخلك . لكنّني لا أستطيع التكلّم إلاّ بما يعتلج في صدري من مخاوف وظنون و رِيَب .

وانتهى الحوار عند هذا الحدّ . و كرّت الأيّام والليالي حتى الأحد الأوّل بعد الفصح ، فوفَد إلى بيت السيّد ماتيو فيانّيه ثُلّة من الزائرين الأنسباء: أخت السيّدة فيانّيه ، مرغريتا ، وزوجها فرانسو همبير ، وأخو ربّ المنزل ، جان فيانّيه ، و زوجته فرانسوز .

وما عتّم أن دار الحديث في ردهة الاستقبال على الكاهن الجديد ((لوجون)) الذي أقسم معلناً الوفاء للثورة والدستور الجديد فقال السيّد جان فيانّيه : ((كيف تجرؤون على حضور قداسه ، وهو يقاوم قرار قداسة البابا القاضي بمقاطعة دستور الثورة ؟ أما تعلمون أنه)) ...

فتابعت زوجته فرانسوز : ((إن هذا الكاهن موقف عن القداس ومنح الأسرار المقدسة ، نظير كل الكهنة المنحازين إلى الثورة ؟ هذا ما صرّح به قداسته)) .

و أرفدت السيّدة مرغريتا همبير : ((إننا في قرية إيكولّي المجاورة لداردیلّي نحضر القداس كل أحد ، الساعة الرابعة صباحاً في أحد الأقبية ، بعيداً عن أعين الرقباء والوشاة ، لأن رجال الثورة يقتصّون من كل كاهن يرفض الإخلاص لمبادئ الدستور ، ومن كل ممن يحضر قداس ذلك الكاهن)) .

فقالت ربّة المنزل ماري فيانّيه : ((الآن أدرك لماذا ابنتي كاترين تنفر من كاهن قريتنا الجديد)) . وتابع زوجها السيّد ماتيو : ((الآن أفهم كذلك لماذا أبى كثير من الأسَر المحافظة المتديّنة الذهاب إلى الكنيسة، منذ أن قدم هذا الكاهن الجديد المنحاز إلى الثورة ، ولماذا راح بعض الرجال المشبوهين ، من أمثال صاحب فندق ((الأسد الذهبيّ)) والبائع المتجوّل ليلو ، والحلاّق موريس ، يغشَون الكنيسة بعد هجرانها طويلاً ، ويرتادون الأنطش ليل نهار . ويخادنون الكاهن الفتيّ المتشرّب من مبادئ الثورة)) .

وأكدّت زوجته : ((من الآن فصاعداً لن نحضر قداس كاهننا الجديد ، أُسْوَةً بعقلاء قريتنا ، ولسوف نتجشّم مشاقّ الفر كلّ أحد إلى إيكوّلي ، فنحضر قداساً حسب رغبة أبي المؤمنين و الكنيسة)) .

عند ذلك استرعى انتباه الحاضرين صوت دافئ فضّيّ من الغرفة المجاورة ، كما لو كان يلقي إحدى العظات ، فقال السيّد جان فيانّيه باسماً : ((هو ابن أخي ، كعادته ، يتدرّب على إلقاء العظات كلّ أحد)). فهرعت أخته السيّدة مرغريتا ، وفتحت باب الغرفة قائلة : ((لنستمع نحن كذلك إلى الكلام الروحيّ من فم هذا الملاك)) .

ولكم كانت دهشة الحاضرين كبيرة عندما وقعت أبصارهم على جان ماري معتلياً كرسيّاً ، وهو يجود بعظته ، مغالياً بالإشارات والتعبير بأسارير الوجه وبحملقة العينين أكثر ممّا بالكلام ، وقد جلس قبالته إخوته أجمعين وبعض أولاد الجيران ، حتى الكلب بيلّو كان ممدّداً مرهفاً أذنيه لنبرات معلّمه ...

وإذا بالخطيب اللامع يقول : ((عليكم أيها الأولاد أن تكونوا ودعاء . أحبّوا يسوع الطّيب من أعماق قلوبكم ، فهو يحبكّم ، ولقد مات من أجلكم على الصليب . فكرّوا أنّ لكم نفساَ ، أمّا بيلّو فليس له ، لأنه كلب وليس بخليقة بشريّة)) .

وهنا ، عندما سمع بيلّو اسمه ، رفع رأسه لحظة ، وهمّ بالنباح . إلاّ أنه عاد فذكر أن النباح لا يليق به أثناء العظة ، فارتخت مفاصله في الحال، وألقى بخطمه على قائمتيه الأماميّتين الممدّدتين .

و تابع الواعظ الصغير : ((لا يجوز لكم الكذب والسرقة ، وعليكم الانقياد دائماً إلى أوامر أُمّكم . من يرتكب خطيئة ، فمصيره جهنّم حيث يحترق إلى الأبد صحبة الشياطين . ولهؤلاء ذنب طويل وقرنان في الرأس وبشرة سوداء فاحمة)) .

و إذ كان الولد في أوج انطلاقته الحماسيّة ، فقد أحسّ بالكرسيّ يهتّز من تحته و يوشك أن يهوي . فأهاب فرانسوا بأخيه الخطيب المفوّه ضاحكاً : ((حذار ! إيّاك والسقوطَ من على المنبر)) ! فانتهره جان ماري ، معيداً الهدوء إلى نصابه : ((لا يليق بنا التكلّم في الكنيسة)) ! ثمّ حاول جمع شتيت أفكاره ثانية بعد هذا التدخّل العنيف ، فلم يفلح ... فراح يخبط خبط عشواء ، رافعاً صوته فعلَ الخطباء الذين أُرتج عليهم، وهو يردّد هذه الألفاظ : ((عليكم أيضاً أ، تحترموا الدستور وتضحوا مواطنين صالحين . نعيش الآن في حقبة من الزمان رائعة ! أجل ، نحن ننعم الآن حقبة رائعة)) ...

وخانته الذاكرة مرّة أخرى ، فجعل يؤكد بصوت جهير أن حقْبة رائعة قد انفتحت للجميع في ظلّ الحريّة والمساواة والإخاء ...

فاستوقفته عند ذاك أخته كاترين هاتفة حزم : ((كفاك وعظ اليوم يا جان ، فهيّا انزل)) .

- أجل ! ولكن لا يحقّ لنا التنكّر للحقبة الرائعة التي نرتاح إليها الآن . فنحن ننعم جميعاً بالدستور الجديد ! .. آمين .
- عندئذٍ التفتت مرغريتا همير إلى الأقارب المشدوهين ، وقالت : ((أرأيتم بأُمّ العين تأثير الكاهن الجديد على أدمغة أطفالنا ؟ إنهم يَعُون كلّ شيء و يردّدون ألفاظه ، ويتخلّقون بأخلاقه)) . فأجابتها أختها ماري : ((سأمضي إليه غداً في الصباح ، و أُحدّثه عن واجبه الكهنوتيّ بصراحة ، عساه أن يهتدي إلى معالم الطريق السويّ)) .

* * *

ولقد فوجئ كاهن دارديلّي ، الأب لوجون ، في اليوم التالي ، عند سماعه زوجة ماتيو فيانّيه تخاطبه بصوت حازم ثابت : ((أصحيح يا حضرة الخوري أنك أقسمت معلناً الولاء للدستور المدنيّ)) ؟

- لا أنكر ذلك
- أصحيح كذلك أن قداسة البابا قد حظّر على الكهنة المقسمين مزاولة خدماتهم الروحيّة ؟
- ليس بإمكان البابا التدخّل إلاّ في الأمور الدينيّة . فسلطته لا تتعدّى هذه الحدود . هذا ما أقرّه الدستور في باريس .

- يد أنّ التعليم المسيحيّ يذكّرنا بخلاف ما تقول . وهاءنذا أتشبّث بأهداب هذا التعليم المقدّس . وعليك كذلك أن تستنير بأضوائه الساطعة ، لا بتومّضات الدستور الخادعة المزيّفة .

فاستوقفها الأب لوجون مغضباً : ((إنك لمواطنة سيّئة)) !

- و أمّا أنت فلست مسيحيّاً صالحاً .
- أيحقّ لك أن تدينيني ؟
- لا تزال ، أيها الكاهن ، شابّاً يافعاً ، و أُمّك لا تزال في قيد الحياة .
- أجل .
- إذن أُقول لك ، باسم أمّك ، اسحَبْ قسمك المضلّل ، واذكر أنك في يوم سيامتك قد حلفت أن تكون وفيّاً للكنيسة لا للدستور . أذكر كلمة المسيح هذه : ((أنا الكرمة وأنتم الأغصان)) . فكلّ غصن ينفصل عن الكرمة يجفّ و يلقى في النار .

فأحار الأب جواباً باضطراب فائق وتلجلُج : ((الحقّ حليفك أيتها السيدّة . الكرمة هي المسيح ونائبه ، ولا يجوز الانفصال عنها . إذهبي الآن ، فلسوف أنعم النظر بما قلته لي)) .

- سأُصلّي من أجلك أيها الكاهن .

* * *

وهكذا ، فإن أسرة فيانّيه كانت تستفيق كل أحد بُعيَد نصف الليل ، فتمضي ، مشياً على الأقدام ، إلى قرية إيكولّي المجاورة ، حتى إذا آذنت الساعة الرابعة بالحلول ، احتفل بالقداس في قوب خفيّ كاهن جليل لم تجرفه أهواء الثورة العاتية ...

وإذا بالمذود الحقير يضحي مذحاً للربّ يميد رهبة وقداسة ، وبالفانوس المتأرجح الأضواء ينقل شعلة خالدة تحترق أمام ربّ الكون ، و بكومات القشّ المبعثرة تستخدم مقاعد ولا أحلى ، وبالأفئدة الملتهبة تخفق حبّاً و اشتياقاً إلى الفادي الإلهيّ الكريم .

وإذا ما انفرط عقْد المصلّين بعد القداس ، واتّخذ كل سرب طريق بيته و قَريته ، كانت كاترين الفتيّة تهمس في أُذن أُمّها مغرورقة العينين : ((يا لعذوبة هذه الصلاةّ كم هي أندى و أمتع لقلبي من صلاة الكاهن الجديد في داردِيلّي)) !

وكان جان ماري يحرّض أخاه فرانسوا المتذمّر من النهوض الباكر ومن السير الطويل الحثيث المعنت ، مع أنه أصغر منه بسنتين ، فيقول له : ((احتملْ حبّاً بالمسيح)) !

* * *

وغادر الأب لوجون بعد بضعة أيّام قرية داردِيلّي ، فلم يخلفه كاهن آخر ، وظلّت الكنيسة مقفلة . وخمد رنين الجرس طوال سنين ، وانطفأت لهبة القنديل أمام القربان المقدس .

وغابت في كثير من البيوت العادات المسيحيّة المتوارثة الطيّبة ، فلم يعد الأهلون فيها يضمّون أيديهم إلى صدورهم و يصلّون ... و أُهمل عماد الأطفال ، وانعقد الزواج هنا و هناك دون حضور الكاهن ، ومات العديد من أبناء الرعيّة مهملين ، فلم يظفروا بزاد الأسرار الأخيرة .

أريد الكهنوت من سنة 1794 إلى سنة 1798

توالت الأيّام ، وقد سقط سجن الباستيل ، رمز المظالم والعبوديّات ، فدُكتّ أركانه ، وقضي على الملك لويس السادس عشر ، وأعلنت حرب شرسة على رجال الإكليروس ، فطاردهم الناس متعقّبين إيّاهم في كل مكان ، للإيقاع بهم بوحشيّة وفظاظة ، و الشعب لا يزال غائصاً في الفقر والتعاسة وألوان الحرمان ، رغم الوعود البرّاقة المزيّفة التي كانت تنهمر عليه دون جدوى .

وفي شباط من سنة 1795 فتح أحد المواطنين الصالحين ، وهو المعلّم دوماس ، مدرسة في قرية داردیلّي ، فضمّت تحت حناياها أطفال القرية لتعليم أصول القراءة والكتابة ، ومن ينهم جان ماري فيانّيه ، في التاسعة من عمره ، وأخته الصغيرة مرغريتا .

ولاحظ المعلّم الغور أن ظلاً من الجدّيّة والهمّ يغلفّ محيّا الطفل جان ماري، ناجماً عن الأحداث المفجعة المؤلة التي كانت تنشر الاضطراب والوجل والحذر في كل أنحاء فرنسا ، فتكدّر المزاج و تعتصر الأفئدة . واستبان للمعلمّ كذلك أن هذا الطفل يصبو بكل جوارحه إلى الكنيسة المغلقة المنتصبة إزاء المدرسة ، فيرنو إليها بتحرّق وشغف ، تائقاً إلى فتح أبوابها وإلى الصلوات المحيية التي كانت تضوع منها أيام السلم ، كما يضوع البخور العاطر الذكيّ ... والمعلم المذكور يوّد لو يستطيع تعليمه أن يملأ الفراغ الدينيّ الهائل الذي أحدثته الثورة في مستهّل عهدها . ولكن من أين له ذلك و الوشايات والدسائس تفتك بالمؤمنين المتشبّثين علناً بأهداب معتقدهم فتكاً ذريعاً ؟ ..

ومع هذا فقد كان المعلم دوماس يغتنم الفرصة حيناً بعد حين ليكسب في قلوب تلاميذه خِلسة بعض التعاليم والتوجيهات سكب الرحيق ، فتنعش نفس جان ماري انتعاش التربة الصالحة عند سقوط أنداء الصباح المرطّبة .

وكان بين التلاميذ فتاة في عمر الورود تدعى ماريون فانسان ، قد انعقدت صداقة بريئة مقدّسة بينها و بين جان ماري ، فراحت تصحه في النزهات والعمل ، فيشبع بينهما جوّ من الأنس والمرح و التقوى .

وفي أحد الأيّام ساق جان ماري حماره المحمّل كيسين من القمح ، واتّجه شطر طاحون سان ديديه في ضواحي قرية دادريلّي ، وإلى جانبه الفتاة ماريون تحدّثه بلا انقطاع، راوية له أساطير ونكات مختلفة رغبة في ترويح نفسه ، وهو واجم لا يكاد ينطق إلا بالقليل القليل .

وكانت الشمس تصبّ نيرانها المحرقة ، وهي تسبح في سماء زرقاء بلا غيوم ، وقد أخذ العياء من المسافرين كلّ مأخذ ... إلى أن بلغا شجرة وارفة الظلال على حاشية الطريق ، فجلسا تحت أغصانها لينالا قسطاً من الراحة .

وهنا بدت ماريون وكأن لسانها ارتبط ، فلم تعد تفوه بكلمة وهي تداور أمراً خطيراً في نفسها ، أخيراً ألقت على جان ماري نظراً ثاقباً ، وقالت في كثير من الحيطة والتردّد : ((أودّ أن أبوح لك يا جان ماري بسرّ دفين في قلبي ، لا أريد أن يدري له أحد)) .

- حتى الله نفسه ؟
- لا . فهو عالم بكل شيء .
- إذن قولي .

فتلعثم لسان ماريون عندئذ ، وقد خضّب الحياء وجنتيها ، ثم جادت هذه الكلمات : ((أرغب في التزوّج بك ، فنكوّن كلانا أُسرة واحدة ونعيش في الهناءة معاً طوال الحياة)) .

- ماذا تقولين ؟

- أجل ، أجل ! هذا هو مطلبي ، فلا تردّني خائبة .

و وجم جان ماري برهة كمن يعالج فكرة تجول في داخله ... فقاطعته ماريون : ((ما بك ؟ أما تحبّني)) ؟

- وأنا أيضاً أوّد أن أُفاتحك برغبة تراود نفسي منذ أمد بعيد . لا أستطيع الزواج يا ماريون ... لأني أهدف إلى ما هو أسمى ... إلى الكهنوت !

- أنت كاهن ؟ في الأسبوع الماضي لاحقَ رجال الثورة كاهناً كان مختبئاً في مغارة ((الجبل الذهبيّ)) ، و تعقّبوا آثاره داخل الغابة الكثيفة بواسطة الكلاب ، حتى عثروا عليه فزجّوا به في السجن ، وبعد يومين أردوه قتيلاً ... لا ، لا أريد أن تموت نظيره .

- ما همّ لو متّ شهيداً ؟ لا أحد يستطيع الوقوف حائلاً دون رغبتي هذه المقدّسة . ولكن ما لنا ولهذا النقاش ؟ فهيّا نتابع المسير ، مصلّيَين السُبحة .

قال هذا ، وسحب جان مسبحته ، وراحت الحبّات تنسلّ بين أنامله ، وهو جادّ في السير خاشعاً ، و ماريون تشاركه في الصلاة ممسكة بمنديلها ، مكفكفة الدموع ...

وعندما أضحت ماريون ، في ما بعد ، جدّة شبعت من كرور الأيام و السنين ، مالت إلى زوجها الشيخ ، وأفضت إليه بمكنونات قلبها لأولّ مرّة . ثمّ تنهدّت الصعداء وعيناها تلمعان ببريق سماوي ، و أساريرها مشرقة متهلّلة : ((سبحان مقلّب الامور ... فشكرانك ، ربي ، على ما أجريت ، إذا أتحت لهذا الكاهن جان ماري أن يصير قديساً تفخر به فرنسا ، بل العالم بأسره)) .

فأجابها زوجها بابتسامة خافقة على الشفتين : ((و شكرانك أللهمّ كذلك، لأنك ادّخرت لي بحكمتك هذه الزوجة الكريمة الطّيبة)) ! ..

* * *

لم يكن أهل قرية دارديلّي يرسلون أولادهم إلى مدرسة المعلّم دوماس إلا في الشتاء ، محتفظين بهم في الربيع والخريف ليستفيدوا من مساعدتهم في الحقول .

فكان جان ماري آنذاك يرتاد المروج وأخته الصغيرة مرغريت ، فيسوقان أمامهما الخراف الوادعة والبقرتين والحمار ، فترعى آمنة تحت أنظارهما الساهرة .

وفي أحد الأيّام المشرقة من صيف سنة 1797 ، مضيا معاً كالمعتاد لرعاية القطيع في أحد المروج الخضراء ، صحبة العديد من أبناء القرية . وما إن وصلا حتى جثَوا على الأرض ، وقدّما نهارهما إلى الله والعذراء مريم ، طالبين الحفاظ على نقاوة القلب ، و واعدين بنشر الصلاح بين الرفقة .

و بعد أن استسلم الجميع إلى المرح و الألاعيب الصبيانيّة البريئة ، دعاهم جان ماري إلى تطواف مقدس ، فامتثلوا جميعهم دعوته ، و سرعان ما امتشق كل منهم غصناً أخضر ، ثم داروا خاشعين حول المرج ثلاث مرات ، وهم يطلقون الترانيم الكنسيّة بأصواتهم الفضيّة الناعمة كأنداء الصباح ، إلى أن انتهوا أمام شجرة من الصفصاف ، قد أودع جان ماري جذعَها الأجوف تمثال العذراء الصغير الذي وهبته إيّاه أُمّه قديماً .

وهنا تلا جان ماري بيتاً من المسبحة ، والجميع يجيبون من بعده خاشعين ، حتى إذا فرغوا ، وقف فيهم وقفة الخطيب الواعظ ، وجاد بالعظة التي سمعها نهار الأحد الفائت في قرية إيكولّي . فحرّض الجميع على الاعتصام بأهداب الدين في تلك الثورة الجامحة الحمقاء ، المتهجّمة على رجال الإكليروس المحافظين وعلى العقائد المسيحيّة الخالصة . ثمّ رثى الحال أولئك الكهنة المطاردين في الرّ والعَلن ، المنكّل بهم شرّ تنكيل ، ظلماً وافتراء و تشفيّاً .

ولم يكد ينتهي من عظته حتى برز من خلف عوسجة رجل مُشعْث الشعر ، شاحب اللون ، متكسّر الجفنين من أرَق و عَياء ، فتقدّم من الأولاد باسماً .

فسرت رعشة في الصفوف ، وقد خامرتهم الظنون لدى رؤيتهم هذا الرجل ، فراحوا يتساءلون هل هو من الثوار ، قذفت به الجحيم في تلك الساعة ليقبض عليهم ويرجّ بهم في غياهب السجون .

فانفرج جان ماري عندئذ من بين رفقته ، و تقدّم نحو ذلك الرجل الغريب المتجنّي ، بخطى وئيدة ثابتة ، وسأله : ((مَن أنت وما تريد))؟

- إسمي غروبوز ، أُزاول مهنة الطخ . قصدت هذه الحقول لأقف على ما تفعلون .
- نرعى المواشي ، ونرتاح إلى الصلاة حيناً ، و إلى العبث و التسليات أحياناً .
- إلى الصلاة ؟
- أجل .
- أما تخافون رجال الثورة الحاملين على الديانة والمتديّنين ؟
- كلاّ ! نحن لا نخاف غير الله سبحانه .

فابتسم الغريب ثانية ، و أردف : ((ما اسمك)) ؟

- جان ماري فيانّيه ، من قرية دراديلّي . بيتنا في طرف القرية بمحاذاة الطريق . فودّعهم الرجل عندئذ مشجعّاً ، وغاب عن أنظارهم عائداً أدراجه .
- أمّا هم ، فراحت الهواجس والشكوك تساورهم ، و طفقوا يردّدون : ((أما يشي بنا هذا الغريب المتطفّل إلى السلطات المدنيّة الغاشمة ؟ وماذا تكون عاقبتنا من بعد ، نحن المساكين)) ؟ ...

فهدّأ روعهم جان ماري ، وقال مستشهداً بآية من الإنجيل طالما سمعها من والديه التقيّين : ((لا تسقط شعرة من رؤوسكم بدون إذن أبيكم الذي في السماوات)) . و يا حبّذا لو ظفرنا بسعفة الاستشهاد ! ..

وعاد الأولاد آخر النهار إلى بيوتهم . ولمّا دخل جان ماري بيته ألفى ذلك الرجل الغريب جالساً بين ذويه ، يتناول طعام العشاء . فدعاه أبوه إلى التسليم على الأب الكاهن غروبوز ، وقال له إنه أحد أولئك الكهنة المحافظين المتشبّثين بأهداب الكنيسة ، وقد أُلجئ إلى تغيير زيّه ، وهو يطوف من مكان إلى آخر مستتّراً ، يبثّ كلام المسيح ، و يستنهض العزائم المنهارة ، و يوطّد المؤمنين .

فابتسم الأب غروبوز ، وأجلس جان ماري إزاءه ، وراح يطرح عليه السؤال تلو السؤال عن أصول الديانة ومبادئ الحياة الروحيّة ، والفتى الصغير يجيبه بثبات و رويّة ، حتى أُعجب به الكاهن فسأله : ((متى اعترفت ، يا جان ماري ، آخر مرّة)) ؟

- لم أعترف أبداً .
- أتريد أن تعترف الآن ؟
- أجل ، أجل !

و انفرد الكاهن بجان ماري في إحدى الزوايا ، فأقرّ الصغير الملاك بهفواته البسيطة ، ونال الحلّ المقدّس ، و تلقّى من أبيه الروحيّ كلام التشجيع . وبعد ذلك نهض الكاهن مودّعاً وقال : ((ما شجعني على المجيئ إلى هذا البيت ، هو ما آنسته في هذا الولد ، و أنا مختبئ خلف العوسجة في الحقول ، من طيب الخِصال ونضارة الفضيلة وبهاء التقوى ، فقلت في نفسي : لا بدّ أن يكون أهله من الصالحين ، إذ لا يُجتنى من

العوسج تين ومن العلّيق عنب ، بل الشجرة الصالحة تعطي ثماراً صالحة ... فمن ثمارهم تعرفونهم ، يقول السيّد المسيح)) .

وكان لا بدّ لجان ماري أن يحظى بمناولته الأولى ، فمضى إلى قرية إيكولّي ، و استضاف زوج خالته ، السيد همبير ، ردحاً من الزمان ، تلقّى خلاله و رفقة له من أبناء القرية ، في مكان منحجب عن الأنظار، مبادئ التعليم المسيحيّ . زوّدهم هذا التعليم راهبتان بزيّهما العلمانيّ ، وكانتا من عداد أولئك الراهبات اللواتي بدّد شملهنّ الثوّار ، و طوّحت بهنّ المقادير ...

أخيراً أزف اليوم المنتظر ! فاستفاق جان ماري باكراً ، والظلام مطبق، وسرى مع أُمّه ملتحفيَن الليل ، و دخلا القبو المعدّ للقداس ، وقد كُمّت نوافذ القبو بأكياس من التبن متراكبة ، لئلاّ يتسرّب إلى الخارج بصيص نور فيستلفت الأنظار و يثير الظنون .

وهناك في هدأة الليل وسحره ، استمع جان ماري إلى القدّاس ، خافق القلب حبّاً بالسيّد المسيح . لم يكن ثمّة من ترانيم ، ولم تُقرع الأجراس، ولم ينضح الأرغن أجواء الغرفة بأنغامه الرائعة ، ولكن خُيّل لجان ماري فيانّيه أن السماء قد انفتحت ، أثناء الكلام الجوهريّ ، عند هبوط المخلّص المفدّى على المذبح من أعلى السماء .

وعندما ألقى الأب المحتفل بالقداس القربانة البيضاء المقدّسة على لسان جان ماري ، غاصت نفسه المشتعلة بالحبّ في لُجّ من النعم و أفراح الأبديّة .

وانتهى الاحتفال ، وأخذ كلّ من الأطفال المتناولين طريق بيته ، ما عدا جان ماري ... فقد بق جاثياً ، هائماً في مناجاة سحيقة حارّة ، و وجهه بين يديه . وعندما همست أُمّه في أُذنه ، داعية إيّاه إلى النهوض والعودة ، نظر إليها كما لو تهاوى من عالم قصيّ غير عالمنا ، يعزّ عليه مغادرته ، وقد تذوّق في ظلاله السعادة السماويّة الحقّة .

* * *

من سنة 1799 إلى سنة 1802

و أضحى جان ماري في الثالثة عشرة من عمره ، فتى في ريعان النشاط والنخوة ، يعزق أرض الحقول بالرفش والمعول ، ويعتني بالكروم ، ويرعى الماشية . ولم ينسَ كذلك الحياة الروحيّة ، فتجلّى مثال التقوى والفضيلة بين أبناء قريته . يعتصم بالمسبحة وهو غادٍ إلى الحقول ، أو عند أوبته إلى البيت مساء ، فيتصاعد السلام الملائكيّ متتابعاً حارّاً إلى العلاء . ملتمساً الغفران والسلام والمحبّة .

ولكم شوهد أثناء العمل ، يتوقّف عن الحركة فجأة ضع ثوان ، ليتمتم صلاة من الأعماق لا يعرف غورها غير الله ، ثمّ يتابع عمله بحماسة وإشراقة على الأسارير .

و إذا ما هبط الليل و أوى كلّ إنسان إلى فراشه ، اندرج هو تحت الدثار ، وظلّ آرقاً لا يغمض له جفن حتى ساعة متأخرّة من الليل ، يتأمّل في الحالة المظلمة القاسية التي تردّت بها الكنيسة إبّان الثورة ، فيتألم قلبه الكبير مشتعلاً بنار قدسيّة سماويّة ... وبعد ذلك ميل إلى الكتاب المقدّس و يتلو منه صفحات وصفحات على ضوء فانوسه ، مُنعماً النظر و مستخلصاً الدروس و العِبَر ، إلى أن يشير إليه أخوه الأكبر فرانسوا بإطفاء النور . فيذعن رأفة بأخيه المنهوك المثقّل بالنعاس ، و يستسلم هو أيضاً لسلطان النوم المريح ، مستودعاً الله نفسه الطاهرة .

* * *

عزم الإمبراطور نابليون بونابرت على إشاعة السلام في أرجاء الكنيسة ، فعقد مع رومة في الخامس عشر من تموز سنة 1801 معاهدة صلح دينيّة ، منحت الكنيسة بموجبها

في فرنسا حرّية العبادة . ولم تُنفّذ تلك المعاهدة إلا في الخامس من نيسان ، من السنة التالية ، فتنفّس المؤمنون الصعداء ، وفتحت أبواب الكنائس ، و تألّقت لهبة القنديل أمام القربان المقدس في بهائها المتومّض الأخّاذ ، وعادت الأجراس تسكر الأجواء برنينها العذب البهيج ...

و عاد الأب جاك ري إلى قريته دارديلّي التي أحبّ ، موفور الكرامة ملتهّب العزيمة للإصلاح بعد موجات الفساد ، رغم تضعضع بنيته و وهاء صحتّه ، راسخ الإيمان بالعناية الإلهيّة ، فاستُقبل استقبال الفاتحين. وكان أن عبث البياض بشعره لما عاناه من شدّة وحرمان ، ولكنّ عينيه ما زالتا تبثّان ضياء نافذاً وسحراً خلاّباً . زار رعيتّه بيتاً وهو يتوكّأُ على عكازته ، مستنهضاً العزائم ، و ساكباً العزاء في القلوب الكسيرة ، حتى قادته خطاه إلى آل فيانّيه ، فرحّب به جميع أهل البيت .

و اطلّع الأب ري على أحوال أفراد الأسرة ، فتقدمت كاترين وهي في الثالثة والعشرين من عمرها ، و إلى جانبها خطّيبها السيّد بول ميلان من قرية إيكولّي ، فباركهما ، وتمنّى لهما زفافاً ميموناً حافلاً بالبركات، وأسرة هانئة تهتدي بتعاليم الكنيسة .

أمّا فرانسوا فقد أعلن أنه ينخرط قريباً في الجيش الفرنسيّ . فشدّد الكاهن عزيمته ، موجّهاً إيّاه إلى التحلّي بالشهامة و عزّة النفس ، و إلى خدمة الوطن بنزاهة و تضحية .

وجاء دور جان ماري فبدأ فتىً يافعاً تمور الصحّة في عروقه .. ولكنّ سحابة من الهمّ تخيّلت على محيّاه ، فسأله الكاهن عن السبب ، فأجاب : ((أوّد أن أصير كاهناً ، و أبي ...

- ما به ؟
- إنه يمانع .

فقالت الأمّ ماري : ((أجل ! يجفو عليّ أن أرى زوجي يقف حائلاً دون رغبة ولدي في اتّباع السيّد المسيح . إنها لنعمة أيّ نعمة ، إذا أُسعدنا بابن كاهن يبذل نفسه رخيصة على مذابح الربّ)) .

فقاطعها زوجها ماتيو فيانّيه بشيء من العصبيّة : ((أنا هو الآمر الناهي هنا في البيت ! ها إن فرانسوا سيغادرنا للتطوّع في الجنديّة ، مع أني أوثر له البقاء في أحضان الحقول ، تدّر عليه وعلينا الخيرات بوفرة و سخاء . وأنا أصبحت متقدّماً في السنّ ، أكاد أرزح وحدي تحت عبء الأعمال الزراعيّة والاعتناء بالدواجن . فكيف أستطيع أن أُفرّط من بعد بجان ماري ، وقد أضحى سندي الأوحد في العمل)) ؟

فسدّد الكاهن إلى السيّد ماتيو نظراً ثاقباً وقال : ((لستَ المرجع الأخير في البيت بل الله . فلا يمكنك ، والحالة هذه ، أن تصّد ابنك في الاتّجاه نحو هدفه الأسمى)) .

ثم التفت إلى جان ماري : ((منذ كم يوماً تشعر بدعوتك المقدسة ، إلى الكهنوت يا بنيّ)) ؟

- منذ أمد بعيد ... فأنا لا أزال أسمع صوت الله يهيب بي حيثما اتّجهت : ((أريدك ... فهيّا اتبعني)) .
- أترغب في العيش الرغيد وفي البحبوحة التي ينعم بها بعض رجال الإكليروس ، فتقضي سحابة حياتك هانئاً مغموراً بالخيرات الدينونيّة ؟
- لا ، لا أريد شيئاً من هذا ، بل خلاص نفسي ونفوس العالم أجمع .
- ولكنك بحاجة إلى مال وفير لمتابعة الدروس ، و إلى تعلّم اللغة اللاتينيّة الصعبة ، لغة الكنيسة .

فخفض جان ماري رأسه في قليل من الاضطراب و الوجل و تمتم : ((الله يرى كيف يخرجني من هذا المأزق)) .

عندئذ وجّه الخوري إلى السيّد ماتيو آخر كلامه : ((إني لعلى يقين من صحّة دعوة جان ماري . فهيّا تشجّع ، وبارك فتاك التابع هدي ضميره. و اعلم جيداً أنك لا تستطيع مباراة الله في السخاء . مهما ضّحيت في سبيله فلسوف يكون ، عزّ و جلّ ، أكثر جوداً منك ، فتضيق أهراؤك بالغلال والخيرات)) .

فبدا السيّد ماتيو فيانّيه عند هذا الكلام ساهماً متهجّماً ، يداور الأمر في رأسه علّه يجد لمشكلته حلاً ، و اكتفى بهذا القول : ((دع الأمر لفطنتي أيها الكاهن القديس)) .

و أعقبت الأمّ ماري : ((إن الله أحقّ من الناس بأن يطاع)) !

وقبل أن يغادر الكاهن جاك ري المنزل ، ألقى نظرة وادعة على مرغريتا والصغير كزافييه الذي أضحى في الثالثة عشرة من عمره وقال لهما : ((أطيعا والديكما ، وأعيناهما في أعمالهما)) .

فأجابت مرغريتا : ((أُساعد أُمّي في أعمالها المنزليّة)) . و أردف أخوها كزافييه باعتزاز : ((وأنا أساعد أبي في رعاية المواشي . أحّن إلى ذلك الوقت الذي فيه أضحي شابّاً فأنوب عن أخي جان ماري في أعمال الحقول)) .

* * *

وجاء الشتاء بزمهريره و برده القارس ، فلم يقْوَ الخوري جاك ري على احتماله ، فغادر القرية مكرهاً ، ودخل مأوى في مدينة ليون ، حيث أمضى أواخر أيّامه .

من سنة 1804 إلى سنة 1805 :

و تتابعت الأيّام ، و جان ماري يتفانى في الأعمال الزراعيّة طوال النهار ، حتى إذا أرخى الليل سدوله ، حاول هو عبثاً أن يرخي العينان لسطوة النوم فينال قسطاً من الراحة في الإغفاءة الهنيئة ... ولكن من أين له أن يغوص في أعماق النوم المريح ، رغم توتّر أعصابه المنهوكة بالعمل المضني ، وفكرة الدعوة الكهنوتيّة لا تبرح مخيّلته ، و صوت الله لا يني يرنّ في ضميره : ((أريدك ... أريدك)) !

لم يخفّف من اندفاعه في العمل ، غير أن وجنتيه أضحتا منجردتين ، وبدا ضامر الخصر ، يعتصم بالصمت ، ويركن إلى التفكير والتأمّل أوقات الفراغ .

ولكم حاولت أمّه الجَزُوع المتحسّرة أن تعزيّه و توطّد عزائمه ... وكذلك أخته كاترين التي تزوجّت بذلت قصارى جهدها مع صهره بول ميلان ليروّحا نفسه الضانية بشتّى الأطايب في أجواء قرية إيكوّلي ... فظلّ على حاله لاجئاً إلى المحاذرة والتكتّم وإعمال الفكر .

وفي النهاية تسلّحت الأمّ بجرأتها وقالت لأبيه : ((إلى مَ تغضّ الطرف عن طلب ابنك ومهوى فؤاده ؟ إذا كان الله يدعوه إلى الكهنوت ، فلا قوّة على الأرض تستطيع التصدّي لتلك الدعوة . أما تراه يذبل مثل شقائق النعمان في المروج ؟ ألا أشفق على ابنك ولا تقاوم إرادة الله))!

- إرادة الله أن يشفق إبني عليّ . لقد بذلنا المال بوفرة لنجهّز بيت كاترين في إيكوّلي بالأثاث . وها إن فرانسوا بكرنا غادرنا فتطوّع في الجيش . آه ! لا يمكنني التخلّي عن أفضل أبنائي وأبرّهم و أشدّهم مِراساً للعمل... لا تعيدي من بعد يا ماري الكرّة على أُذنيّ !

* * *

وفي أحد الأيام من خريف سنة 1804 هبط السيّد ماتيو مع ابنه جان ماري إلى قبو الخمور ، لتنسيق دِنان الخمر ، وإذا الخمرة الجديدة متوثّبة توثّب اللهب ، فيتصاعد منها هدير وأزيز وخشخشة ، حتى ليُظنّ أن الزِقاق ستتفجّر ، والأغطية ستقفز إلى العلاء ...

فقال الأب لابنه الصامت المهموم : ((أتسمع يا بنيّ هذا الأجيج والصخب المتعالي الطاغي على آذاننا وكلامنا ؟ فبمقدار ما تؤجّ هذه الخمرة و تصخب في أوّل عهدها ، تكون في النهاية طيّبة المذاق ، تفعم الصدر بهجة وانشراحاً . ولكنها إذا كانت بعد العصير هادئة راكدة ، لا نكاد نسمع لها فحيحاً وصريراً ، نحكم عليها في الحال بالمرض ، ونعرض عنها متأفّفين)) ...

فأدرك جان ماري أن الكلام يعنيه ، فلم يُحرْ جواباً ، لعلمه أن الاعتراض والشرح و إبداء الرغبات لا تجدي فتيلا . ألم يجرّب ذلك مراراً ؟

عند ذاك تابع الأب حديثه : ((أما ترى إخوتك من حولك ؟ يكدحون نظيرك من الصباح حتى المساء في جوّ من التقوى ومخافة الله ، ومع هذا فهم في انطلاقة مدهشة من الفرح والمرح والضجيج والعبث ... ما بك ؟ أيّ خَطْب دهاك ؟ أنت في الثامنة عشرة من عمرك اشبه براهب محجّب يقضي حياته وراء الحاجز المشبّك .

((آه لو رأيتني في الثامنة عشرة من عمري ، وأنا في زهوة الشباب و إشراقته ، أخوض غمار العمل غير هيّاب ، و أتوثّب توثّب هذه الخمرة الحيّة الحامية ، فأضحك ملء

رئتي ، وأنطلق على سجيّتي البهيجة المِرْاح ، إذن لبدّلت سيرتك فانقادت لك الدنيا بأفراحها و روائعها))...

فلم يتمالك جان ماري عند ذاك عن الإجابة ، فألقى على أبيه عينين دامعتين وقال : ((أريد أن أصير كاهناً)) ! فارتجف أبوه ارتجاف الموتور ، وارتسمت عقدة الغضب على جبينه ، وكان على وشك الانفجار لولا رؤيته الحزن والألم والانهيار تغلّف قسمات ابنه ، فانكسرت شوكته في الحال ، و اكتفى بهذا الجواب : ((أنت تعلم يا جان ماري أن طلبك مستحيل التحقيق ، فما لك إلاّ أن تغيّر موقفك)) .

و دون أن يفوه الأب وابنه بكلمة ، تابعاً عملهما في صمت ثقيل ، فلم يسمع سوى هدير الخمرة الثائرة على المظالم في سجنها الضيّق .

((طلبك مستحيل التحقيق)) ! .. آه ، ماذا يعرف الأب عن حالة ابنه النفسيّة ؟ عن هذا القلب الواجف المسكين الذي يقاوم العنف المتعسّف مقاومة الخمرة الجديدة في سجنها الخشبيّ ؟ ماذا يعرف هذا الأب عن الحسرة المريرة والألم النافذ المحرق اللذين ألقيا هذا الشابّ الطريء الناعم في جوّ من التكتّم والانقباض والتقلّص ؟ ..

صحيح أنه بثّ أُمّه شكاواه وأحزانه فشجعتّه قدر استطاعتها ، وأن أخته كاترين وصهره بول ميلان أشفقا عليه واجتهدا عبثاً في تخفيف وطأة الألم عن نفسه ، ولكن هاتفاً ما برح يهيب به في أعماق أعماقه : ((أريدك ، أريدك)) ... فتتلجلج تلك النفس تلجلُج الحمامة وقعت في الشَرك ، وهي توّاقة إلى التحليق في الأجواء الأثيريّة .

* * *

في أواخر هذه السنة جرى حدَث جلّل لم يخطُر ببال أحد : لقد أراد الإمبراطور نابليون بونابرت استدعاء قداسة البابا بيوس السابع إلى باريس ليَنْعَم بحفلة التتويج في كاتدرائيّة ((نوتردام)) من يد قداسته .

وكان على صاحب القداسة أن يمّر في مدينة ليون بمركبته ، فجثا الأهلون على الرصيف لدى مرور موكب أبي المؤمنين رغبة في التبرّك . وكان بين الجاثين كذلك السيّد ماتيو فيانّيه مع أسرته ، فأثّر فيه مشهد نائب السيد المسيح على الأرض ، إذ ظهرت على أساريره مسحة من الجلال والقدسيّة مشوبة بالحزن والألم .

ولمّا قفل السيّد ماتيو عائداً إلى قريته يحفّ به ذووه ، لم يتوانَ عن البَوح بما يجول في خاطره ، فقال متأسّفاً : ((كان الأجدر بالإمبراطور أن يمضي هو بنفسه إلى رومة ليحظى بالتتويج ، فيجنّب قداسته عناء السفر و ذُلّ التنقّل)) . فأجابه أحد الجيران : ((لن يكون ما اجترحه الإمبراطور خاتمة آلام قداسة البابا ، على ما أظنّ)) .

وجاء الواقع مَصداقاً لهذه التخوّفات : فان الإمبراطور ، عندما رفع قداسة البابا التاج ليلقيه على رأسه ، لم يدَعْ قداستَه يفعل ، بل انتزع هو بعنجهيّة وكبرياء ذلك التاج من يدّيْ صاحب القداسة ، و توّج به رأسه. فعاد البابا إلى روما مكسوف الخاطر ، مهيض الجناح ...

تناهت هذه الأخبار إلى السيّد ماتيو ، فأثّرت في قلبه ، وخلقت فيه ميلاً ولو مُبهماً لإنعاش الكنيسة وتوطيد دعائهما .

* * *

وفي إحدى الأمسيات من تشرين الأوّل عاد السيّد ماتيو فيانّيه من الحقول والكروم مطأطئ الرأس حزيناً : لقد انهمرت الأمطار طوال الصيف هذه السنة ، فتعفنّت السنابل ولم ينضج العنب ، بل انفرطت العناقيد فتناثرت حبّاتها المتلْفة على الأرض .

ولّما بلغ البيت تهاوى على الكرسيّ ، و زفر زفرة صعدت من الأعماق وصاح : ((لا شيء ... لا شيء في الحقول والكروم ... يا للخسارة الفادحة ، و يا لضياع ما بذلت من الجهود)) !

فقالت زوجته ماري : ((أما ترى أن الله يعاقبنا ؟ تخلّى عنّا لأننا وقفنا حاجزاً دون دعوة ابننا إلى الكهنوت)) .

فتظاهر ماتيو بعدم السماع والاكتراث ... و لّما لم تتلقّ زوجته جواباً اقتربت منه وخاطبته بجلاء : ((لقد ناهز ابننا كزافييه السادسة عشرة من عمره)) .

- ما هي بغيتكِ ؟
- أقول إنه بلغ أوج نشاطه في أعمال الزراعة ، وبإمكاننا ...
- ماذا ؟
- بإمكاننا الاستغناء عن جان ماري .
- إذن ؟
- لماذا الصدّ والتمنّع ؟ لماذا لا نسمع نحن ايضاً صوت الله ، ونتعامى عن إرادته القدوسة ؟ أما كفانا من مصائب ؟

وهنا نهض ماتيو ، وأمارات الاضطراب والتضعضع بادية عليه ، وطفق يذرع الغرفة طولاً وعرضاً بعصبيّة واهتمام ، ثمّ دخل غرفة النوم و أوصد الباب ، وارتمى على السرير ...

وإذا به يتخيّل طيف الكاهن جاك ري ، يوم تفرّس فيه قبل أربع سنين وقال له : ((الله هو الآمر الناهي . لا يمكنك يا ماتيو أن تحول دون إرادته)) ! توفيّ هذا الكاهن القديس السنة الماضية في مدينة ليون ، وها إن طيفه ينبعث الآن من عالم الأبديّة ليعود فيؤنبّه على تحجّر قلبه وجمود ضميره .

وما هي إلاّ دقائق حتى انتظم الجميع حول المائدة ، فتناول ماتيو الصحفة وهمّ بسكب الحساء الشهيّ في صحنه ، ولكنّه سرعان ما عدل وعافَ أن يأكل ، وظلّ حليف الوجد والصمت والتفكير ، ولم يجرؤ أحد من أولاده على مفاتحته بما يجول في خلَده . حتى زوجته آثرت السكوت على الكلام في ذلك الوقت العصيب . وبعد صلاة المساء ، وقد تلاها الجميع معاً أمام تمثال العذراء ، انفرد السيّد ماتيو بزوجته وقال في شيء من الهدوء والارتياح : ((أبإمكاننا تحقيق مأرب ابننا جان ماري ، وهو الآن في التاسعة عشرة من عمره ؟ ومن أين له التهيؤ لدخول الإكليريكيّة بزاد دسم من المعارف ، ونحن فقراء لا نكاد نحصّل هذه السنة بلُغَة العيش ، والكفاف من الرزق)) ؟

- لا تجزعَنّ . إنّ ابننا جان ماري لا يثق بالخوري الجديد في قريتنا ، الأب جاك تورنييه ، ثقتَه بسلفه الأب جاك ري . ولذا فنحن نرسله إلى كاهن قرية إيكوّلي الأب شارل باليه ، فيتلقّى منه العلم مجّاناً ، وينزل ضيفاً في بيت أختي مرغريتا و زوجها فرنسوا همبير، أو في بيت ابنتنا كاترين . وها إنّ صهرنا بول ميلان أكّد لي البارحة أن باستطاعته إقناع الأب شارل بالقبول .
- أنتم إذن تدبّرون الأمر خلف ظهري ، وتجرون المياه من تحت قدميّ دون أن أشعر ؟ هيّا اعملي بما ترتئين يا ماري ! .. أيّدك الله في مسعاك الجميل !

- شكرانكَ على الرضى يا أفضل زوج
- و شكرانَكِ أنت على اعتصامك بالفضيلة ، يا أفضل زوجة ! ...

* * *

شاع في أجواء قرية إيكولّي أن الأب شارل باليه غارق في أعماله الرسوليّة ، لا متّسع له من الوقت للانصراف إلى التدريس ، أو إلى مهامّ أخرى لا تتعلّق مباشرة بالخدمات الراعويّة . فاحتارت السيدة ماري فيانّيه بأمرها ، وراحت تعمل الفكر و تستشير و تقلّب المشكلة أمام أقاربها من كل الوجوه ، إلى أن انتصب صهرها بول ميلان وقال : ((أنا أقنع الأب شارل بالقبول . فما له إلاّ أن يرى أمامه جان ماري، حتى تنحلّ عقدته ، ويخفّ إلى المساعدة)) .

و اصطحب بول جان ماري فمضيا شطر الأنطش . و لمّا مثلا أمام حضرة الخوري ، أطلعاه على رغبتهما . فتمنّع الكاهن معتذراً بتراكم الأعمال وضيق الوقت في قرية كبيرة ليس فيها كاهن نائب يعضده ويفسح له المجال للنهوض بأعمال جانبيّة على هامش الحياة الرسوليّة .

فأجابه جان ماري : ((ما أسألك إيّاه ليس على الهامش يا حضرة الخوري ، إنه من صميم المهامّ الراعويّة . أما يُعدّ خطيراً في نظرك تهييء الشباب لارتقاء الدرجات الكهنوتيّة)) ؟

فرنا إليه الكاهن ، فرأى وجهه كوجه ملاك ، والدمع يجول في عينيه دلالة على التحرّق الداخليّ ، فارتدّ إلى الوراء وأخذ يسير الهُوَينا مترفّقاً ، جاهداً في حلّ المشكلة ... وبعد هنيهة عاد فالتفت إلى جان ماري ، فألفاه لا يزال في وقفته ، وعيناه

المغرورقتان ما انفكّتا تبثّان ضياء سحريّاً سماويّاً ، واسترحاماً ... فقال له بعد أن تفرّس فيه ثانية : ((ألم تكن منذ ستّ سنين أو سبع في عداد الذين أعددتهم للمناولة الأولى)) ؟

- بلى يا حضرة الخوري ، منذ سبع سنين .

فذكر الكاهن عندئذ ذلك الفتى الصغير الذي كان يلتهم كلامه و إرشاداته باشتياق شديد ، ويتجلّى مثالاً رائعاً لرفقته في التقوى والفضيلة . إذا كان آنذاك قد هيّأه للتقدّم من المائدة المقدّسة ، فما المانع أن يضحّي الآن في سبيله ، رغم زحمة الأعمال والواجبات ، فيعينه على بلوغه هدفه المنشود ، حتى يضحي كاهناً نظيره يزرع النعمة في قلوب العطاش إلى البرّ ؟ ..

في هذه اللحظة الحاسمة طار به خياله إلى رحاب المستقبل ، وكأنه ينهب الغيب بناظريه الشاردين ، وإذا به يتخيّل ملامح هذا الشابّ مرتدياً الثوب الكهنوتيّ ، مبسوط اليدين ، والمؤمنون يتسارعون إليه أفواجاً أفواجاً ، لنيل البركة ...

وما إن أفاق من غيبوبته القصيرة حتى وجد جان ماري ما برح يرمقه بنظره المخضلّ ، خافق الأحشاء واجف الصدر ، متعلّقاً بشفتيه . فما عتّمت شفتاه أن تحركّتا ، فتساقطت هذه الكلمات : ((أعدك يا بنيّ أني سأكون بجانبك حتى النهاية)) ! ..

فاستنارت ملامح جان ماري ، وشكر للكاهن غيرته وتفانيه ، ثمّ انطلق إلى الوراء مسرعاً يطوي الطريق في مسيره طيّا ، وصهره لا يكاد يجاريه في المشي السريع ، حتى وصل إلى أُمّه ، فأطلق في وجهها بشراه السعيدة . فضمتّه إلى صدرها ، وطبعت على جبينه قبلة الفوز والتعزية والفرح .

العليقة المحترقة سنة 1806

شرع جان ماري يؤمّ صبيحة كلّ يوم وهو ثلاثة من الفتيان أنطش الأب شارل باليه لتعلّم اللاتينيّة . فاصطدم بوعورة هذه اللغة . يجهد ليل نهار في حفظ تصريفاتها المتشعبّة المتشابكة في الأفعال والأسماء والصفات ، وهو لا يكاد يستوعب إلاّ القليل القليل ، ولا سيّما و إن ذاكرته بدت متمرّدة قد علاها الصدأ ... فيما رفاقه الثلاثة انطلقوا في ميادين هذه اللغة الصعبة بنجاح فائق غير هيّابين .

إلاّ أن جان ماري تفوّق على زملائه الثلاثة باتّزان عقله و رصانته ، وبتقواه المنقطعة النظير وفضيلته الراسخة .

أثناء الصوم عزم على إماتة الجسد لتشرق الروح زاهية حرّة من كلّ قيد ، إلاّ أنه بالغ في الإماتة فلم يعد يأكل في الوجبات الثلاث إلاّ النزر الخفيف ، فوهت صحتّه وتضاءلت مقدرته على اقتباس العلم أكثر فأكثر .

ولاحظت خالته مرغريتا همبير تردّي صحتّه ، فهرعت إلى الأب شارل باليه ملتاعة الأحشاء ، وبثّته أشجانها و تخوّفاتها .

فما كان من الأب المذكور إلاّ أن لفت أنظار تلميذه الشابّ إلى خطورة الموقف و إلى الخطأ في التصرّف ، و نصحه بالأكل الخفيف في وجبتين فقط، أمّا الوجبة الثانية فيحسن به أن يتناولها كافية لتجديد قواه و النهوض بواجباته بدقّة و إتقان . فانقاد جان ماري دون ممانعة لتوصيات أستاذه و مرشده الروحيّ .

وحدث في تلك الآونة أن أوعز الأب شارل إلى أحد تلاميذه المدعوّ ماتياس لوراس مساعدة جان ماري في تصريف أحد الأفعال . فأخذ ماتياس هذا ، وهو الفتى الصغير الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، يحاول تلقين تلميذه الشابّ البالغ من عمره العشرين . إلاّ أنه أخفق في محاولته أيّما إخفاق. فقد أبتْ ذاكرة جان ماري الانفتاح والحفظ ، حتى عيل صبر المعلّم الناشئ ، و توتّرت أعصابه ، فأمسك بكتاب القواعد اللاتينيّة ، و رمى به رأس جان ماري فآلمه كثيراً .

فتكتّلت قبضة الشابّ القرويّ الأنوف واحمر خدّاه ، وهمّ بالبطش بذلك الصعلوك المتجنّي . لكنّه ما عتّم أن امتلك ذاته وكبح جماح غضبه ، ثمّ تقدّم من ماتياس الخائف ، وجثا أمامه ، واستغفره : ((عذراً على ما فرط من تقصير ، فقد ازعجتك . أعدك في المستقبل أن أكون أكثر اجتهاداً)) .

فلم يدرِ ماتياس ما حلّ به في تلك اللحظة : لقد احمرّ وجهه احماراً قرمزيّاً ، ثمّ أخذ في الاصفرار ، و وثبت الدموع إلى عينيه ، فقال متمتاً : ((سلكتُ منذ هنيهة سلوك الحيوان . فغفرانك جان ماري . أجل ! سلكت سلوك الحيوان)).

قال هذا ، وانهال في صبيب من البكاء ، مخبئاً رأسه بين يديه . فسأله جان ماري ، والابتسامة خافقة على شفتيه : ((أترضى بمحاولة تعليمي مرّة أخرى)) ؟

- أجل أجل ! سأعمل معك قدر ما تريد .
- أتعتقد أني سأتوصّل إلى غاية حميدة ؟
- لا شكّ ، ستتوصّل . ولكن ، إيّاك أن تجثو من بعد أمامي .

و هكذا غاص كلاهما ثانية في أدغال التصريفات اللاتينيّة . و لمّا عاد الأب شارل باليه سارع إلى طرح بعض الأسئلة على جان ماري ، فأجاب عليها كلّها بصحّة دون تعثّر ، فشجّعه الأب ، وأجزل الثناء على الأستاذ الصغير .

* * *

و رغم جهود ماتياس في التدريس ظلَ جان ماري ثقيل الخطو في التقدّم العلميّ ، ولم تنفتح له أسرار القواعد اللاتينيّة على مصراعيها ... إلى أن جاء الصيف فبدا جان ماري هذه المرّة قليل الصبر متقطّع الأنفاس لا أستاذه . إذ كان يتصوّر أهله مشمّرين عن ساعد الجدّ في الحقول . وهو قابع في قرية إيكولّي يعالج عبثاً قواعد اللغة اللاتينيّة المستعصية .

ولكم من مرّة فاجأ نفسه وهو غائص في بحر تأملّاته ، ساهياً شارد الفكر في ربوع دارديلّي ، و أستاذه الصغير جادّ في الشرح والتبسّط . ولقد بلغ منه الضجر كلّ مبلغ في إحدى الأمسيات ، إذ أخفق إخفاقاً ذريعاً في التفهّم والاستذكار ، فجاشت نفسه جَيَشان القِدْر على النار ، ومضى توّاً إلى الأب شارل ، وبثّ أشجانه : ((هاءنذا أعود إلى دارديلّي)) .

- لماذا ؟
- لأنّ عزيمتي تثبّطت ، وأنا أهدر الوقت سدىً في التعلّم والحفظ ، وأهلي يكدحون بلا هوادة في الحقول .

وكان وجه جان ماري شاحباً ، وهو مطرق إلى الأرض ، وصدره آخذ في الخفقان ...

فرمقه الأب بعطف و حسرة ، ثم أخذ يسير في أرجاء الغرفة على غير هدى ، وعلى جبينه سحابة من الهمّ ... أخيراً توقّف فجأة مقابل جان ماري وقال : ((لن أدعك تذهب بهذه السهولة . أما تدري أنّ أباك لن يتركك هذه المرّة تعود إلى متابعة هدفك المنشود)) ؟

- لقد أضعته ، ولن أحظى به مدى الحياة ! آه ! يا لحسرتي ! ..
- كلاّ لم تفقده بعد . إنه صعب المنال ، ولا شكّ .

ولسوف تصيبه يوماً . أما ترى أن الشيطان يبذل قصارى جهده لإلقاء اليأس في قلبك ، و صدّك عن مجاري الخير والصلاح ؟ لقد آذاه هو الماكر الخدّاع ، أن يستشّف فيك مخايل كاهن المستقبل الذي ينتشل النفوس عن مخالبه و يسحق رأسه . فراح ينصب لك الحبائل والفخاخ ...

- فما العمل ؟
- ألا أعرْض عن سماع أكاذيبه وأضاليله ! قديماً ، لم يدع فرعون الإسرائيليّن يغادرون أرض مصر ، إلى أن أحلّ به الله و بشعبه الضربات العشر . وأمّا أنا ، فرعون قرية إيكولّي ، فلن أتركك تهجر هذه الديار ، ولو تراكمت عليّ المصاعب من كل صوب ، واستُهدفت لكلّ ضربات الأرض .
- ولكنك ، أبتِ ، لست فرعون . لأنتَ موسى الذي سيقودني خللَ صحراء القواعد اللاتينيّة القاسية الخشنة ، إلى أرض الميعاد ، إلى الكهنوت .
- مَرْحى بك ، وبالأبطال أمثالك ! ..

و تعانق الأب وتلميذه معانقة الموّدة والتعاضد والكفاح في سبيل الخير .

وأعقب جان ماري : ((أوّد لو أحججّ قبرَ القديس فرانسوا ريجيس في لوفيسْك ، فألتمس من هذا القديس الكبير المساعدة والبركة .

- فكرة صائبة . فهيّا اذهب إلى قبر هذا القديس وافتح له قلبك . واعلم جيّداً أ، الله يظهر غالباً في المصاعب الشائكة ، كما ظهر قديماً لموسى في العليّقة المحترقة .
- العليّقة المحترقة بالنسبة إليّ ، هي ولا شكّ الدروس المليئة بالأشواك و الأحساك .

* * *

في يوم من الأيّام الحارّة الخانقة ، سار جان ماري شطر لوفيسك ، لابساً بذْلة قرويّة فضفاضة ، وعلى كتفه جعبة تحتوي قليلاً من الزاد ، وبيده عصا عقْداء . إنه ناذرٌ اجتياز مئة كيلومتر ، مستعطياً خبزه اليوميّ ، للتبرّك برفات القديس فرانسوا ريجيس .

لم يقبل من أخته مرغريتا إلاّ قليلاً من الطعام يكفيه نهاراً واحداً ، وصهره فرانسوا همبير لجأ إلى إظهار غضبه حتى يتمكّن من إلقاء حفنة من الدراهم في جيبه ، وهو يتشبّث بالتمنّع والرفض . فقبل هذه الدريهمات ، وعقد النيّة على ألاّ ينفق منها فلساً واحداً طوال الطريق ، بَرّاً بنذره ورغبة في الإماتة والتقشّف .

سار على بركات الله في شعب وَعْر صعب المسلك ، والشمس تصبّ عليه نيرانها المحرقة من فوق ، والأرض تشويه من أسفل ، فاضطّر مراراً إلى التوقّف تحت الأشجار الظليلة ليستعيد قواه .

و لمّا مالت الشمس إلى الغروب طرق باب مزرعة منفردة ، يسأل المبيت في القبو على القشّ اليابس ، فكان نصيبه الشمّ والإهانة وإغلاق الأبواب في وجهه .

فهاجت نفسه عندئذ ، وطفقت تذكر الأيّام القديمة التي كان فيها حدَثاً في كنف الأسرة ، يستقبل و ذويه الحجّاج والمشرّدين على السواء ، ويجزل لهم الطعام ، و يفسح لهم مكاناً للنوم المريح . وها هو الآن يُرذل و يُنتبَذ انتباذ الحُثالة ، و يُحصَب بملء صحراء من الكلام المجرّح المشين ...

فنام منهوك القوى ، ملتحفاً السماء ومفترشاً العراء ، وفرائصه ترتعد عند هبوب الهواء البارد وسط الليل .

وعند انبلاج الصباح تابع المسير بهمّة جديدة ...

ومال النهار ثانية ، والجوع ينهش أحشاءه الخاوية كالجعبة المعلّقة على كتفه ، لأن الزاد الطفيف الذي حظي به من أخته قد أتى على التهامه منذ اليوم الأوّل .

و إذا به يمرّ إزاء كوخ ، فيقرع بابه ، فتطلّ امرأة عجوز تفرّست فيه مليّاً في كثير من الحيطة والحذر ، ثم تظاهرت بالترحيب الجميل ، وتكلّفت الابتسامة المشرقة ، وقالت له : ((أبإمكانك أن تعينني على تسريح هذه الخيوط المتشابكة)) ؟

- بطيبة خاطر يا خالة !

و دنا جان ماري من العجوز الحاملة بين يديها مغزلاً مغموراً بالخيوط ، وأمسك بطرف أحدها ، فطفقت العجوز تدير المغزل بيديها ، برشاقة ، وجان ماري عائد إلى الوراء ، إلى أن تجاوز العتبة . فما كان من العجوز المحتالة إلاّ أن أغلقت الباب بخبطة شديدة ، وصاحت من خلفه بصوت مُشْبع بالتهكّم والازدراء : ((لا أراني الله وجهك من بعد ، أيها المشرّد التافه الأرعن ! لستَ بالشريف فيحقّ لك مشاطرتي خبزي الذي أكسبه بعرق الجبين)) .

فوقف جان ماري أما الباب الموصد ذاهلاً فترة من الزمان ، ثمّ ثاب إليه ما عزَبَ عن فكره المتضعضع الحائر ، فاستدار على ذاته بتثاقل ، و أكمل طريقه مترنّحاً من الجوع والعياء . فقادته خطاه إلى نبع ماء سَلْسَل رَقْراق ، نبتت من حوله أكوام من التوت البرّيّ ، فقطف منها بعض الثمار محاولاً إطفاء نار الجوع المتأكّلة في داخله ، ونقعَ غليله بالماء النمير ، و استسلم للنوم .

و استيقظ في اليوم التالي تحت وطأة الجوع الأليم . فجنى بعض الثمار البرّيّة من هنا وهناك ، و استأنف المسير . وما هي إلاّ لحظات حتى صادف شابّاً فارّاً من الجيش ، مغيّراً زِيّه و سَحنته ، يأبى الالتحاق بكتائب نابليون لمحاربة البروسييّن .

فأشفق عليه هذا الجنديّ الهارب ، وجاد له بشطيرة خبزٍ عفنة من جيبه ، فقبلها جان ماري شاكراً ، وأكلها غير عابئ .

ثم قال الفارّ : ((لدى دخولنا هذه القرية المطلّة ، نفترق على أمل اللقاء في ما بعد ، حتى يتسنّى لي ولك القبض على دجاجة شَرود ، ودقّ عنقها خلِسْة . وهكذا نكسب طعامنا بعرق الجبين)) .

- لا بل بالسرقة . أنا لن أشترك في ارتكاب هذه الجريمة .
- هذا لا نسمّيه في الجيش جريمة بل غنيمة . إلى اللقاء !

وابتعد الجنديّ الفارّ ، متثنيّاً بين البيوت والمزارع ، وأمّا جان ماري فقد مال إلى الكنيسة ليتملّى من كنوز الروح ، شاكراً الله تخلصّه من هذا الشارد المنحرف .

وعند خروجه من الكنيسة استضاف ناطورَ القرية ، والتعب والجوع مُلمّان به من كلّ جانب ، فأشفق عليه الناطور وقدّم له وجبة دسمة . وعندما رآه المضيف يصلّي قبل الأكل بحرارة قال لهل : ((أصدّق أنك من الحجّاج)) .

وفي يوم آخر ، عانى جان ماري بعض المتاعب : فقد سأل إحدى ربّات البيوت قطعة خبز . فأدخلته منزلها هاشّة له ، ثم استدعت الشرطيّ في الخفاء . فداهم الشرطيّ المنزل وألقى القبض عليه وفتّش جيوبه . فلمّا عثر على الدراهم قال له : ((أيها اللصّ الظريف ! تسلب الناس أموالهم و تتظاهر بالفقر والتسوّل ؟ سأُودعك السجن لا محالة)) .

وعبثاً حاول جان ماري إقناعه أنه بريءٌ قد نذر الاستعطاء ، وهو لا يريد إنفاق فلس من هذه الدراهم رغبة في التقشّف ... فلم يحظَ بأُذن مُصغية . وفي النهاية ، بعد أخذ وردّ و استجواب دقيق ، استبانت براءة جان ماري، فربّتَ الشرطيّ على كتفه معتذراً . وقدّم له خبزة وقليلاً من الماء ، وفتح له مستودع الإطفائيّة مبيتاً . فاستطاب جان ماري النوم هذه الليلة تحت سقف ، ولو كان فراشه كومة من القشّ في مستودع حقير .

* * *

أخيراً وصل في مساء اليوم السادس إلى الهدف ، إلى لوفيسك ، فدخل كنيسة الشهيد المعترف بالإيمان ، القديس فرانسوا ريجيس . وسرعان ما نسي في دفء الكنيسة أتعابه . فجثا أمام رفات القديس ، وسأله الدعم والمعونة في تعلّم اللغة اللاتّينيّة . فشعر بالسلام يشيع في جنبات نفسه وبنصرة من العلاء تؤيدّه و تشجعّه .

و اعترف بخطاياه في مساء ذلك النهار عند كاهن في الدير المحاذي للكنيسة ، فأسمعها الكاهن كلمات العطف و المساندة ، وحضّه على متابعة دروسه رغم كل صعوبة . ثمّ بدّل له نذره في استجداء طعامه اليومي من البيوت والمارّة ، إذ لا يجوز الاعتماد على قوت الغير ، عندما يكون الإنسان قادراً على تحصيل طعامه .

و دعا الكاهن إلى قضاء تلك الليلة تحت كنف الدير .

وفي صباح اليوم التالي حضر القداس خاشعاً ، وتناول بشغف القربان المقدّس ، ثمّ عادَ أدراجه .

ولم يكن إيابه صعباً : لم يطلب الخبز من أحد ، ولم يلجأ إلى المآوي ، بل راحت الدريهمات تنسلَ من يمينه فتمضي في سبيلها لسدّ حاجاته ، دون تناسي المعوزين السائلين ، يحنو عليهم و يجود . ولم يتساءل مرّة واحدة هل يستحقّون الصدقة أم هم مخادعون محتالون .

ومّا بلغ إيكولّي استقبله الأب شارل باليه بمثل ما ودّعه من موّدة وبشاشة ومشاركة وجدانيّة . و سُرّ الأب أن يرى اليأس متبخّراً من فؤاد تلميذه ، وقد حلّ مكانه الأمل المتومّض الفتّان .

وشعر جان ماري أن اللغة اللاتينيّة أصبحت منذ ذلك الحين أقلّ جفاء وخشونة ، وأن تلك العليّقة المحترقة قد لانت أشواكها .

من سنة 1807 إلى سنة 1809 :

بلغ جان ماري في تلك الآونة وثيقةٌ من قبل المجلس الحربيّ تأمره بالتطوّع في جيش الإمبراطور نابليون . لقد دوّخ الإمبراطور أوربّا ، و ازدهت انتصاراته الباهرة في إيطاليا و إسبانيا وألمانيا و النمسا ، وهو الآن بحاجة إلى جنود فتيان يحلّون مكان القدامى المدرّبين الذين سقطوا في ساح الوغى ، ليتابع المعارك المظفّرة .

فهو جان ماري على كرسيّه شاحب الوجه ساهماً ، وراح يتمتم : ((ضاعت رسالتي ... من أين لي من بعد أن أتعلّم)) ؟ فهدَأ أستاذه الأب باليه من روعه ، و حضّه على الاستسلام لمشيئة الله وعنايته ، و وعده ببذل الجهود لإنقاذه من هذه الورطة .

وفي اليوم التالي خفّ الأب الغيور إلى مدينة ليون ، ودخل المطرانيّة ، و سأل رئيس الأساقفة ، الكردينال فيش ، أن يتوّسط لدى نابليون فيطلب إعفاء الإكليريكيّين ، طلّاب الكهنوت ، من الانخراط في الجيش ، ولا سيّما وإنّ الكردينال المذكور هو عمّ الإمبراطور .

إلاّ أنّ هذه المساعي الحميدة لم تكلّل بالنجاح . فلقد ظلّ نابليون مصرّاً على عناده ، يفرض على كلّ الشباب ، أيّاً كانوا ، تلبيه ندائه في حمل السلاح ... وحاول ماتيو فيانّيه إنقاذ ابنه من خوض المعارك ، نزولاً عند رغبة زوجته ماري ، فباع قطعة من الأرض ، و دفع بثمنها إلى رجل رضي أن يكون بديل ابنه في الجيش . إلاّ أن هذا الرجل عاد فغيّر رأيه في آخر لحظة ، و أرجع الدراهم إلى صاحبها .

وهكذا ، في السادس والعشرين من تشرين الأوّل ، أُرغم جان ماري ، نظير شبّان كثيرين في زهوة العمر ونضارة الحياة ، على مغادرة القرية للمضيّ إلى مدينة ليون والمثول أمام ثُكنة المشاة .

وكان يردّد في سرّه : ((لتكن مشيئتك يا الله)) !

* * *

من سنة 1809 إلى سنة 1810 :

وصلوا إلى ساحة الثكنة ، فظلّلوا منتصبين على أقدامهم طوال ساعات ، والمطر ينهمر عليهم سَحّاً وتسكابا انهماره من أفواه القِرَب ، إلى أن قُسموا شُعَباً عديدة ، لكلّ شُعبة مهجعها و ضابطها .

فبدت المهاجع فسيحة مطليّة بماء الكلس ، لا دفء فيها ولا نار . و أمّا ثيابهم فكان من المحتوم أن تبقى عليهم دون تبديل ، وهي ترشح ماء ، إلى أن يُعطوا ألبستهم العسكريّة .

و أُصيب جان ماري بارتعاد غريب يهزّه بعنف ، فيصرُف بأسنانه و تصطكّ ركبتاه . وما إن بلغ سيريه حتى ارتمى عليه في حال شديدة من الإعياء . فسمع ، وهو في شبه غيبوبة وسط غمرة من الشتائم و التهكّمات، صوت أحدهم يقول له : ((أراك مريضاً)) .

- أجل مريض أنا .
- خذ إذن جرعة من هذه القنّينة ، فتعود إليك نفسك وتحيا .
- لا . لا أشرب كحولاً .
- مجنون انت . الكحول والشتائم هما صِنْوان لا يفترقان في الجنديّة . فهيّا اشرب ولا تمانع . ولا تنسَ أن الكحول الآن هي بمثابة دواء لك .

فاستجرّ جان ماري في النهاية لنصيحة هذا الشابّ ، وجرع جرعة ، فاحمرّت حدقتاه و وجنتاه ، و أخذ العرق يكدّه . ولكنّ الحرارة ظلّت ملازمة إيّاه ليل نهار ، طوال يومين ، وقد أرغمه الضابط القاسي على اتّباع المنهج المعيّن نظير الآخرين ، وفي عزمه أن يقوّي شكيمة هذا الفتى ((الطريء)) ويصلّب عوده .

ولذا أمره بالهرولة مع رفقائه في الساحة تحت المطر الهتّان ، فامتثل جان ماري الأمر ، وطفق يجرّر قدميه جاهداً خلف الزملاء ، وأنفاسه حرّى كاللهيب ، والحمّى تصهره .

وفي صبيحة اليوم الثالث أُغمي عليه ، ورئتاه في التهاب فنقل إلى المستشفى العسكريّ ، وظلّ طوال بضعة أيّام فاقد الرشد ، في غيبوبة ، يعاني سكرات الدوار الشديد . ولّما استفاق وجد أُمّه بقربه ، ترنو إليه بعطف وتعتني به .

توافد جميع أهله و أقاربه من داردیلّي و إيكولّي ليعودوه . وكذلك الأب باليه لم يتوانَ عن زيارته و إرشاده إلى الصبر الجميل والركون إلى مشيئة الله وعنايته .

* * *

بعد خمسة عشر يوماً تماثل للشفاء ، فكان عليه أن ينتقل مع سربه إلى مدينة رون ، ولكن بالعربة نظراً إلى وهاء جسمه .

و فوجئ في أجواء هذه المدينة بالمرض نفسه ينشب مخالبه ثانية في هيكله الضاني ، فحمل على الفور إلى مستشفى الراهبات الأوغسطينيّات ، وبقي طريح الفراش ستّة أسابيع تتناوبه

الحمّى و يتبلّغ به الألم . إلاّ أن طبيعته القرويّة المفطورة على الصحّة والعافية أبت إلاّ الشفاء ، فتغلبّت على المرض .

وما أسرع ما وافاه إلى المستشفى حينذاك مذكّرة تأمره بالحضور إلى الثكنة في الخامس من كانون الثاني قبل الساعة الخامسة مساء . فنهض في الموعد المضروب و ودّع الراهبات شاكراً لهنّ تضحياتهنّ . و استوقفته راهبة عند العتبة و أسرّت إليه في كثير من المزاح : ((لست مؤهّلاً يا جان ماري للحياة العسكريّة ، بل لصلاة السُبحة)) ...

و ذكر وهو في الطريق أنه في عشيّة عيد الغطاس ، فمال إلى الكنيسة ليصلّي ردحاً ولو يسيراً ، وقد استبان له أن متّسعاً من الوقت كافياً يفصله عن الخامسة . فهام في صلاته ، مستودعاً المسيح المعتمد في الاردنّ براءة نفسه ونقاوته ودعوته المقدّسة التي طفقت الاعاصير و الأمواج المزبدة المرغية تتلاعب بها و تقذفها إلى الصخور .

هام في الصلاة ، وهو ذاهل عمّا حوله ، غائص في عالم الغيب . ولمّا استفاق هاله أن يسمع الساعة تدّق في صمت مهيب جليديّ السادسة ، فتسارعت دقّات قلبه ، و أيقن أنه لا بدّ متأخر ، وانطلق يعدو واجفاً مضطرباً .

وصل إلى الثكنة فوجد الأبواب مغلقة ، والآذن يهمّ بالخروج ، فانبعث من حلقه صرخة نكراء استرعت انتباه الآذن ، فبادره بالاستفهام : ((ما بك))؟

- أين الجنود ؟
- رحلوا إلى الحدود الإسبانيّة في الخامسة لخوض المعارك .
- ماذا عليّ أن أفعل ؟

- ما لك إلاّ عرض قضيّتك للقائد بلانْشار ، عساك أن تجده مرتاح الأعصاب طيّب الخلق ، و إلاّ ! ..

وهنا ارتسمت على شفتي الآذن ابتسامة ملؤها التحذير والوعيد .

فاتجه جان ماري إلى غرفة القائد مطأطئ الرأس ، و أعلمه آسفاً أنه تأخّر ساعة عن الموعد لسَهْو ألمّ به . فرشقه القائد بنظرة غاضب ، وصبّ عليه جام سُخطه مُتْرَعاً بالحُمَم والتهديد ، وأرعد : ((أيها الفارّ الغافل عن واجباتك . سأغُلّ يديك و رجليك فتُساق إلى الاعمال الشاقّة كالمجرمين)) .

عندئذ تدخّل ضابط قديم رئف بجان ماري وقال للقائد : ((اعذُره هذه المرّة . لقد خرج اليوم من المستشفى ، وهو غير مدرّب على الأساليب العسكريّة)) .

- أيظنّ أني سأُرسله إلى الحدود الإسبانيّة راكباً في العربة الإمبراطوريّة؟

ثم التفت القائد إلى جان ماري : ((أُقدّم لك فرصة واحدة للنجاة . عليك اللحاق بسربك بعد غد صباحاً . فإن تأخرّت ، فلا تلومنّ غير نفسك . تمضي أوّلاً إلى مدينة رينيزون ، ثم إلى الجنوب . هيّا اغرُب من أمامي)) !

عندئذ زوّد الضابط القديم جان ماري بوثيقة تثبت هويّته العسكريّة ومركزه من سربه ، وشجّعه على الأسراع . فمضى لا يلوي على شيء ، متسربلاً الظلمة التي راحت تمتّد شيئاً فشيئاً ...

في صباح اليوم التالي كان لا يزال بعيداً عن مدينة رينيزون ، والبرد يكاد يجمّد تحرّكه ، والهواء القارس يلفحه صافراً صفير الهاويات السفلى ، و نُتَف الثلج تتساقط بغزارة فتكسو الأرض ببساطها الأبيض الجليديّ .

و إذا به يرى نفسه بعد الظهر على سفح جبل فوريز ، يصعّد بعناء كبير ، محشرج الصدر لاهثاً ... ولقد زلّت به القدم في تصعيده فهوى على الأرض، فلمّ شَعثُه وحاول المتابعة فلم يقْوَ على المسير . عندئذ تحامل إلى أكمة مجاورة و ارتمى تحت الأشجار .

وفيما هو كذلك يصلّي السبحة ، إذا به يفاجأ برجل قرويّ منتصب أمامه . فقال له القرويّ : ((ماذا تفعل هنا)) ؟

فروى له جان ماري قصته . فأجابه القروي : ((لن نستطيع اللحاق براقك . ما أمامك إذن إلاّ الفرار . سيهبط الليل قريباً ، ولسوف تضلّ طريقك في الظلام الدامس ، لا محالة)) .

- ما العمل إذا لم ألتحق بسربي ؟
- هلمّ . اتبعني .

فاستسلم جان ماري لمشيئة الله و مشيئة هذا الرجل . وبعد قليل وصلا إلى بيت منفرد وسط الغابة ، فقرع القروي الباب ، فأطلّ شيخ حامل فانوساً ، لأن الظلمة بدأت ترخي سدولها ، و رحّب هاتفاً : ((أهلاً بك يا ((غي)). عرّفني بالطارق المنتاب))

- هو جنديّ أخْنى عليه الدهر فأمسى فارّاً مشردّاً مثلي .
- أهلا بكما في بيتي .

وهيّأ لهما الشيخ ، ويدعى غوستاف ، ما تيسّر من الطعام ، فأكل جان ماري بشهيّة إذ كان الجوع قد فتك بأحشائه . ثم قال للشيخ : ((أرى أن نابليون هو المجرم . يكتسح البلاد الأوروبيّة فيدّك البيوت وينهب الخيرات ويعمل السيف في رقاب الأهلين ، لإعلاء اسمه

واكتساب الشهرة . إن هذه الشعوب المغتصبة لا تريد لنا الشرّ ، وهي آمنة لا تتعدّى على حقوقنا . أيحقّ للإمبراطور الفرنسيّ ، والحالة هذه ، أن يهاجمها فيسكر من خمرة الانتصار؟

أنا لست فيلسوفاً بل إسكاف بسيط ، ولكنّ الحقيقة بيّنة لكلّ رجل متبصّر يحلّل الأمور .

فهزّ جان ماري رأسه ، وكأنّ كلام هذا الشيخ قد نال منه استحساناً ، ثمّ شكر لمضيفه اعتناءه وسخاءه ، و انزوى ناحية يطلب الراحة لجسده التعِب المعنّى.

لم يستفق إلاّ في اليوم التالي ، وقد ولّى الصباح هارباً مع فلول الظلمة ، فألفى نفسه وحيداً في زاويته . من أين له اللحاق بسربه وهو بعيد عنه بُعد السماء عن الأرض ؟ وماذا سيحلّ بأهله الجزوعين وهم لا يعرفون عنه شيئاً ؟ وكيف يتسنّى له أن يعيش ويكسب قوته بعرق الجبين ، وهو في هذه البقعة النائية ؟

كلّها أسئلة راحت تتهافت عليه وتلحّ إلحاحاً . ولقد اجتذبه من بحرانه وتأمّلاته هذه قدوم غي ، فقال له : ((آمل أن تكون قد ارتحت . أنا أعمل عند هذا الإسكاف في نشر أخشاب الغابة ، فيصنع منها أحذية خشبيّة ، أمّا أنت فلا عمل لك عنده ، لأن مهنته لا تحتاج إلى أكثر من عامل واحد .

- ماذا أشتغل إذن يا غي ؟ وكيف أكسب خبزي اليوميّ ؟
- مشكلتك سهلة . تمضي إلى مختار مزرعة آل نُوِيس القريبة ، واسمه بول فايّو ، فهو يتدّبر أمرك .

وهكذا ، فإن هذا المختار أشفق على جان ماري عند سماع قصته ، وعْزم على انتشاله من ورطته ، فذهب به إلى نسيبته الأرملة كلودين فايّو ، واتّفق معها أن تفسح له مجالاً في بيتها ، شريطة أن يلقي على ابنائها بعض الدروس .

وأشار المختار عليه بتغيير اسمه لئلاّ يهتدي إليه رجال الشرطة المبثوثون في هاتيك البقاع بحثاً عن الفارّين من الجنديّة . فاتّخذ له اسم ((جيروم فانسان)).

من سنة 1810 إلى سنة 1811 :

تألّم جان ماري كثيراً من نكرانه ذاته و تخلّيه عن اسمه . وكان يفكّر بأهله ، والمرارة والاضطراب يعتلجان في داخله . إنهم ، ولا شكّ ، يقاسون بسببه عذابات كثيرة ، ولا سيّما أُمّه المتألّمة من ابتعادها عن فلذة كبدها ،والهواجس تساورها من كل صوب .

لقد كان أشبه بغريق رمته العاصفة على شُطآن مقفرة ... فكيف يتسنّى له بلوغ مأربه يوماً إذا كان مرغماً على الإختفاء ، وكأنه أحد المجرمين العائثين فساداً ؟

كان في النهار يلازم الهُرْي ، مستودع التبن ، وفي الليل يركن إلى زاوية من الإسطبل ، خوفاً من الوشايات وانحجاباً عن أعين رجال الشرطة الذين ازداد عددهم مع ذوبان الثلوج وبروز معالم الطرقات .

بعد شهرين من هذه الحياة المتخفيّة القاسية ، أخذ جان ماري يجازف بنفسه فيخرج إلى وَضَح النهار ويعانق الأضواء ، و يستنشق الهواء الطلق ملء رئتيه ، وهو يعمل في حقول السيدة فايّو ، فيحرث الأرض ويقلبها ، و يشذّب الأغصان اليابسة ، ويرعى البقرات ، و يهتمّ بعض الأحيان بتدريس أولاد أهل البيت الذي استضافه .

وكان ابن السيّدة فايّو البكر ، البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، واسمه لويس، يسارع إلى تنبيه جان ماري ، إذا ما أحسّ برجال الشرطة يجوبون الناحية . فيهرع جان ماري عندئذ إلى الهري ويغور تحت التبن ، تاركاً له منفذاً صغيراً جهة الحائط للتنفّس ، ريثما يغيب الشُرط وتنفرج الأزمة .

وفي أحد الأيّام ، فيما جان ماري يحرث الأرض خارج المزرعة ، إذا به يلمح رجال الشرطة ، فيعتريه الاضطراب ويترك المحراث ويهرب ، فيتعقّبه الشُرط في الحال .

إنسّل إلى الهُري بأسرع من خفق الجناح وغاص تحت كومات التبن . وبعد هنيهة وصل الشرط ، فسألوا السيدة فايّو عن أمر الجنديّ الفارّ المختبئ في بيتها ، فأجابت مستنكرة السؤال : ((إن خامرتكم الظنون فهيّا فتّشوا)) .

وهبط الشرط إلى الأقبية السفليّة ينقّبون بدقّة ، قالبين رأساً على عقب كل ما تناهت إليه أيديهم ، إلى أن بلغوا هُرْي التبن . وبعد أن أرهفوا الأسماع وقلّبوا أنظارهم في كل مكان ، حتى تحت المُدّ الصغير والغربال ، شهروا سيوفهم فجأة ، و راحوا ينفذونها داخل التبن ... وكانت أنفاس جان ماري قد بدأت تحشرج ، فيُخمد الشهيق والزفير من جذورهما ، ونفسه قد بلغت التراقي ، وحرارة التبن آخذة بخناقه ...

و إذا بأحد السيوف يصيبه في كتفه ، فيكبح انفجار صيحة الألم في الحنجرة ، وقد هاله أن يشعر بالدم يسيل من الجرح ساخناً قرمزيّاً ... وكان على وشك الخروج من مخبَئِه والاستسلام لولا قدوم المختار بول فايّو الذي خفّ في تلك اللحظة الحاسمة بإيعاز من نسيبته ، وأهاب بالشرط : ((ما بالكم تبحثون عبثاً)) ؟

- نفتّش عن الجنديّ الفارّ .
- ليس جنديّاً . قد يكون شابّاً استهواه طعم البيض الطازج في الخمّ ، فانسّل إليه . هلمّ اتبعوني إلى البيت ، ولا نضيعنّ الوقت سُدى ، فنحتسي بضع زجاجات من النبيذ المثلّج .

فافترّ ثغر الشرط عند ذكر النبيذ ، فأجاب رئيسهم وهو يفتّل شاربيه : ((الحقّ بجانب المختار . هيّا نتبعه)) !

ولمّا فرغت الغرفة وثب جان ماري من مريضه ، وهو على شفير الاختناق والإغماء ، فصعدت به السيّدة فايّو إلى الدار ، حيث ضمّدت جرحه ، وقدّمت له بعض المرطّبات .

* * *

لاحظ جان ماري في ما بعد أن الضياء يذوي في وجنتي السيدة فايّو ، فقال لها : ((مريضة أنت)) ؟

- أجل . وقد وصف لي الأطبّاء هواء بلدة شربونْيير المنعش .
- شربونْيير ؟ هذه البلدة محاذية لقريتي داردِيلّي . آه ، لقد هاج بي الحنين إلى ربوع الأهل ً فهاءنذا أستودعكِ رسالة تذهبين بها إلى ذويّ ، وتنزلين عليهم ضيفة مكرمّة طلباً للراحة والاستجمام .
- و أولادي ؟ و بيتي ؟

- لا ضَيَر عليهم ولا خوف . لديك خادمة أمينة تهتّم بالأولاد ، وأنا أرعاهم بعينيّ الساهرتين .

فاستحسنت السيّدة فايّو رأي جان ماري ، فيمّمت شطر دارديلّي ، و لشَدّ ما كانت فرحة الأهل ، ولا سيّما الأم ، عند اطّلاعهم على أخبار ابنهم ، فأنزلوا السيّدة فايّو على الحرب والسّعة ، وأحاطوها بالعناية والتكريم طوال ثلاثة أسابيع .

وعلمت السيّدة المذكورة أن ماتيو فيانّيه عانى مضايقات عديدة بسبب تخلّف ابنه عن الخدمة العسكريّة : لقد أُرغم على إيواء جنود في بيته ، وهُدّد بتجريده من آخر فلس في جيبه ، إذا لم يستعد ابنه الفارّ . وممّا زاد في الطين بلّة أنّ داء العصيّ أنشب مخالبه عميقاً في جسمه ، فأضحى سريع الهيجان يثور لأدنى معاكسة .

لكن الأحوال لم تدم كذلك طويلاً : فإن الإمبراطور نابليون أصدر عفواً بعد بضعة أسابيع عن جميع الجنود الفارّين ، شريطة أن يجدوا لهم بديلاً أو أن يدفعوا فدية من المال معيّنة . فقدّم أخو جان ماري ، كزافييه ، نفسه مكان أخيه ، وكان البكر فرانسوا قد رجع إلى البيت يزاول أعمال الحقول .

فانتعش جان ماري لهذه الأنباء ، وهو يعلّل النفس ثانية بالسير الحثيث نحو الكهنوت ، حلمه الزاهي الذي خلب نفسه وكاد يذيب شِغاف فؤاده . فودّع آل فايّو ، وخصوصاً السيّدة فايّو التي كانت قد رجعت إلى بيتها رافلة بثوب العافية والنشاط ، ولم ينس المختار وجميع أصدقائه في المزرعة ، واتّجه إلى دارديلّي .

فاستقبل بالتهليل والدموع . إلاّ أن سحابة من الهمّ انتشرت في سماء نفسه عندما شاهد أُمّه الحبيب تسعل سعالاً مضنياً . فقال له أبوه ، وهو يضمّه إلى صدره : ((هو الربْو يا بنيّ ، ومرض القلب ، ألَمّا بأُمّك ، وقد شقّ عليها ابتعادك وانقطاع فلم يفُه جان مراي بكلمة ، واعتصم بالصبر الجميل والصلاة، ملاذه الأمين أيّام المحن والشدائد . وعاد يؤمّ قرية إيكولّي ، كما في السابق ، ليتملّى من الدروس اللاتينيّة قدر المستطاع ، بمؤازرة معلّمه الأب شارل باليه ، حتى إذا آذن الأسبوع بالانقضاء ، رجع إلى دارديلّي ليعود أُمّه المريضة و يستنهض همّتها .

وفي الأسابيع الأولى من السنة التالية اشتدّت وطأة المرض على الأمّ ماري . وفي الثامن من شباط سنة 1811 ، بدت على آخر رمق ، تغالب اجتياح القضاء . ولمّا حضر ابنها جان ماري قبالتها ، استنارت عيناها ، ولم يكن بوسعها أن تجود بكلام كثير ، فاستجمعت قواها و تمتمت : ((سيجعل منك الله كاهناً صالحاً . سوف أُصلّي من أجلك ... بقربه تعالى)) ... ثم ألقت يدها على رأس ابنها الجاثي إزاءها ، ورقدت هانئة في سلام الله .

إلى هيكل الرب سنة 1812 إلى سنة 1814

أخذ نابليون يتهيّأ لغزو روسيّا ، وهو يستدعي الشباب اليافعين من كل أطراف البلاد ليحملوا السلاح مكان الذين سقطوا في ساح الوغى . ففي يوم من ربيع سنة 1812 ودّع جان ماري أخاه كزافييه المرتدي ثياب الجنديّة تأهبّاً للالتحاق بسربه : ((آمل أن أراك بعد العودة سالماً من كل أذى يا أخي)) .

فأجاب كزافييه متضاحكاً : ((أجل ، أجل . سأعود وأضيف حصتّك في الإرث إلى حصتّي ، جزاء قبولي أن أكون بديلك في هذه الحرب)) .

- لا بأس بهذه المكافأة . أتخلّى لك عن كلّ شيء . إلاّ أن هاجساً كان يهمس في داخل جان ماري : ((لن أرى أخي ، من بعد ، إلى الأبد))، فراح يغالب دمعة ساخنة في عينيه .

* * *

لبس جان ماري الثوب الأسود في بداية الشتاء ، ودخل المدرسة الصغرى في فيريير من مقاطعة فرساي ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، فكان أكبر تلميذ في الصف ، يفوق رفاقه ببضع سنين .

وكان أيضاً أقلّهم حفظاً للدروس ، ولا سيّما وإن الأستاذ شازيل ، وهو أصغر عمراً من جان ماري ، راح يلقي دروس المنطق وعلم النفس باللاتينيّة ، فيتلقفّها التلاميذ الصغار بسهولة ، ويجيبون على أسئلته باللغة نفسها ، بذلاقة و وضوح . أمّا جان ماري فلم يكن يعي من الأسئلة المطروحة عليه سوى بعض الكلمات ، فيحاول أن يجيب بكلام مبهم متقطّع دون أن يعني شيئاً ، فينفجر التلاميذ بالضحك ، ويجلس هو خجولاً متحيّراً ، وينظر إليه الأستاذ مشفقاً واجماً .

ولقد عزم مرّة جان دوبليه ، وهو أذكى التلاميذ ومن أصغرهم سنّاً ، على الاستهزاء به والنيل من كرامته أمام الرفاق ، فقدّم إليه ورقة خَطّ عليها مرجعاً إلى الكتاب المقدّس ،

قائلاً وهو يتظاهر بالجدّيّة : ((الكتاب المقدس يا جان ماري هو خير تعزية لنا إبّان الشدائد . فارجع إلى هذه الآية ترَ فيها تشجيعاً وعوناً)) .

- شكراً لك أيّها الصديق على نصيحتك .
- وتناول جان مراي الورقة ، واهتدى بها إلى الآية المعينّة في سفر التكوين ، فإذا هي العدد الرابع عشر من الفصل التاسع والأربعين ، وهذا نصهّا : ((يَسّاكَر حمار ضخم ... وقد رأى الراحة ما أجودَها ، والأرض ما أنزهَها ، فأحنى كتفه للحِمْل)) .

فاحمرّ خدّاه وانسحق وطأة الإهانة ، ولكنّه ظلّ متمالكاً ، محاولاً الابتسامة. فهبّ إليه صديقه الحميم مارسيلاّن شامبانيا ، وهو أصغر منه سنّاً بأربع سنين ، طويل القامة ، مفتول الساعدين عريض المنكبين ، وسأله : ((ماذا قرأت)) ؟

- ما أستحقّه .

إلاّ أنّ مارسيلاّن لم يسمع الجواب بسبب الضحكة المدويّة المتصاعدة من أفواه الرفاق المتكبكبين ، فانتزع الورقة من صديقه ، واستدلّ بها على الآية . وما إن قرأها حتى ثار ثائره وصاح بالهازئين غاضباً : ((عارٌ عليكم ! وأنت يا دوبليه فستنال العقاب)) .

وهنا أمسك بالكتاب وأدناه من عيني ذلك الصغير المتجنّي ، وقد شدّ بقبضته على أعلى قميصه وكأنه يبغي تمزيقها ، وأهاب به متهكّماً : ((إقرأ الآن ما ينطبق عليك أيها الحقير ،إقرأ الآن العدد السابع عشر من الفصل نفسه)) !... فتمتم المسكين مرتعداً : ((يكون دان ثعباناً على الطريق و أُفعواناً على السبيل)) .

فرانَ الصمت على القاعة ... وتابع مارسيلاّن : ((أما تستحقّ الآن أن اصفعك على خديّك)) ؟ فتقدّم جان ماري عندئذ مسترحماً : ((لا ، لا تلحق به سوءاً ، فانا هو الحقير الفاقد الإدراك)) . عندئذ دفع مارسيلاّن ذلك الوقح إلى الوراء وقال : ((إيّاك والعودة إلى حماقتك من بعد)) .

وظلّ دوبليه طوال النهار يحوم حول جان ماري ، مطأطئ الرأس ، فتشجّع في النهاية ، و دلفَ إليه مستغفراً : ((ألتمس الصفح ، فأنا هو الحمار . هيّا اصفعني على خدّي)) .

- نسيت كل شيء . كنتَ على صواب في اتّهامك لي ، فأنا بطيء الفهم في مجال العلم .

تحنّن الأستاذ شازيل على جان ماري ومارسيلاّن شامبانيا وخمسة من رفاقهما ، لما كانوا يجابهون من صعوبة في تفّهم اللاّتينيّة ، فطفق يجمعهم على انفراد ، ويلقي عليهم الدرس بالفرنسيّة .

وعلى هذا النحو استطاع جان ماري أن يحصّل رصيداً مقبولاً من تلك العلوم الفلسفيّة . ولكنّه لم يدرك أبداً أهميّة تعلّم بعض التحديدات الدائرة حول حقائق بدائيّة يفهمها أصغر الناس ، ولا حاجة إلى إبرازها ، كهذه مثلاً : ((لا يستطيع شيء ما أن يوجد و ألاّ يوجد في آن واحد)) ...

وكان ، إذا ما صعب عليه اكتناه بعض الدروس الشائكة ، ينتحي زاوية من الكنيسة ، ويُكبّ على الغوص والتحصيل في حضرة المسيح ، المعلّم الأوّل .

ومع هذا ، فقد استطاع متابعة الدروس الفلسفيّة . وعند انتهاء السنة الدراسيّة أشار إليه الرئيس بالتعمّق في البرنامج كلّه قرب أستاذه الأب شارل باليه . فمضى إلى إيكولّي حاملاً هذه العلامات :

الاجتهاد : حسن

المعارف : هزيلة جدّاً

السلوك : حسن

الخُلق : حسن

فقال له الأب باليه : ((ثلاث علامات جيّدة مقابل واحدة سيّئة . وممّا يسكب التعزية في قلبك أنّه ما كان بوُسْع القديس بطرس ، لو درس في إكليريكيّة فيرييير ، تحصيل علامات أعلى من علاماتك في المنطق وعلم النفس)) .

في البيت الواحد وجن جان ماري أهله مضطربين حيال مصير أخيه كزافييه، إذ لم يكن بعد قد عاد من الحرب الروسيّة . وقال له أحد أصدقائه القدامى الذين قُدّر لهم أن يرجعوا سالمين : ((إن هذه الحرب لهائلة . لقد مات من الجنود الفرنسيّين ما ينيف على النصف ، تحت وطأة البرد والجوع)) ...

و اندلعت نيران حرب جديدة ، فانكسر الإمبراطور شرّ كسرة ، قرب مدينة ليبْزيك من ألمانيا الشرقيّة ، في السادس عشر من تشرين الأوّل . فوقعت عينا جان ماري على فلول الجنود المهزومين المثْخنين بالجراح ، العائدين إلى الوطن ، ولم يرَ حتى ذلك الوقت أثراً لأخيه

المحبوب . فدخل إكليريكيّة القديس إيريناوس الكبرى في مدينة ليون ، قبيل عيد جميع القديسين ، ونفسه مفْعمة بالألم ، خاضعة لمشيئة الربّ .

إلاّ أنه تعزّى عندما عرف أن رفيقه مارسيلاّن شامبانيا وجان دوبليه هما من عداد الأربعة الذين يشاطرونه السكنى في غرفة واحدة .

وظهرت الدروس أكثر صعوبة ممّا في المدرسة الصغرى ، إذ كانت كلّها تُلقى باللاّتينيّة . فلاحظ الرئيس ، الأب غارديت ، أن عميد الإكليريكيّن ، جان ماري ، لا يستطيع النهوض بعبء دروسه ، فعيّن له جان دوبليه أستاذاً معيداً في أوقات الفراغ ، كما أن أحد الأساتذة ، الأب ميولاند ، تبرّع له ببعض ساعات في الأسبوع ، يشرح له خلالها اللاّهوت في كتاب فرنسيّ .

فاقتبس المعارف اللاّتينيّة الضروريّة ، وكان بإمكانه الإجابة على الأسئلة بطريقة مقبولة ، لو طرحت عليه باللغة الأمّ .

إلاّ أن الأساتذة آنذاك تشبّثوا باللغة اللاّتينيّة تشبثّاً أعمى ، وكأنها العصا السحريّة التي تلبس الحقيقة ثوباً سماويّاً متألّقاً .

وكان أن حصل ما ليس في الحُسبان : فقد استقدمه الأب الرئيس يوماً وأعلمه أنه عاجز عن متابعة دروسه ، ولذا فالله يدعوه إلى عمل الخير في العالم ، دون اعتناق الحياة الكهنوتيّة .

فطأطأ جان ماري رأسه ، وأحسّب الأرض تدور دورتها في ثانية ، وبآماله الزاهرة العراض تذوي كما تذوي أزاهير الربيع ...

وفيما هو خارج من الدير استوقفه صديقه و ((معلمه)) جان دوبليه وهمس في أُذنه : ((إن كان بيننا من شباب مدعوّين إلى الكهنوت ، فأنت في طليعتهم)) !

ولمّا بلغ إيكولّي وأطلع استاذه الأب باليه على النتيجة ، انتفض الأب القديس وأخذ على عاتقه ملاحقة القضيّة وتذليل كلّ العقبات . فهرع في الحال إلى الإكليريكيّة ، وبعد أخذ وردّ مع المسؤولين ، و دفاع بليغ عن صحّة الدعوة منذ جان ماري ، قيل له إنّ الكلمة الفصل النهائيّة تعود إلى الأب كوربون ، النائب العامّ لأبرشيّة ليون ، وهو يسوس الآن الأبرشيّة في غياب الكردينال فيش . فمضى إليه .

وهناك ، في حضرة النائب العامّ ، التمس الأب شارل باليه قبول جان ماري للخدمة الكهنوتيّة ، وداعماً آراه بالحجّة الدامغة . فالتفت إليه النائب ، وكان واقفاً على المنزلة الرفيعة التي يحتّلها الأب باليه في مضامير الخبرة الراعويّة والفضيلة ، وسأله : ((هل جان ماري فيانّيه هو تقيّ . أيحبّ العذراء مريم ؟ أمواظب هو على صلاة السُبحة كلّ يوم ؟

- أجل ! هو مثال في التقوى .
- مثال في التقوى ؟ هذا ما تفتقر إليه فرنسا في أيّامنا . فأنا إذن أقبله ، ونعمة الله تتمّ كلّ نقص .
- أشكر لك تفّهمك من الصميم ، يا حضرة النائب العامّ . ثمّ ودّع الأب باليه باحترام ، وسار في سبيله فرحاً .

* * *

من سنة 1814 إلى سنة 1815 :

في صباح الثاني من تموز سنة 1814 ارتقت ثُلّة من الإكليريكيّين في دير القديس إيريناوس درجة الشمّاس الرسائليّ ، ومن بينهم قرويّ دارديلّي ، بوجهه التقشّفي المشرق بضياء السعادة.

وعند الانتهاء من الحفلة الكنسيّة ضمّ الأب باليه تلميذه القديم إلى صدره مهنئًا إيّاه على هذه الخطوة الأولى الخيّرة التي أحرزها نحو الكهنوت .

وكان ثمّة في ردهة الاستقبال أيضاً أُختاه كاترين ومرغريتا ، ممثّلين الأهل والأقارب .

وهنالك الأصدقاء في الإكليريكيّة ، وعلى رأسهم مارسيلاّن شامبانيا الذي أضحى شماسّاً إنجيليّاً ، وجان دوبليه . معين جان ماري في استذكار الدروس. ولقد همس دوبليه آنذاك في أُذن أحد زملائه : ((كان فيانّيه فقيراً في المدرسة ، والأخير بين تلاميذ القديس إيريناوس في مجالات الدرس ، إلاّ أنه يستحقّ أن يدعى يوماً أكثر من الجميع نبيّ الله العليّ . ففي عينيه يلتمع ضياء الروح القدس .

* * *

ولقد سيم جان ماري في الثالث والعشرين من حزيران سنة 1815 شماسّاً إنجيليّاً ، وإلى جانبه مارسيلاّن شامبانيا ، موسّس ((إخوة مريم الأصاغر)) في المستقبل ، و كلود كولان الذي سيضحي مؤسّس المريميّين .

وقدّم جان ماري لآخر مرّة في حياته امتحاناً ، استعداداً للكهنوت ، فأجمع الفاحصون هذه المرّة أن الامتحان جاء مرضياً . عندئذ زوّده النائب العامّ في الابرشيّة ، الأب كوربون ، بإذن السيامة ، فمضى سيراً على قدميه إلى مدينة غرونوبل لكي يحظى بسرّ الكهنوت من يد المطران سيمون .

سُمح له بارتقاء درجة الكهنوت قبل اكتمال سني الدراسة ، نظراً إلى سنّه المتقدمّة . فبعد رياضة روحيّة ، اتّجه وحده نحو غرونوبل ، لا مرافق له من أهله وأقاربه لانهما كهم في الحصاد وقطف العنب . بيد أن أُخته مرغريتا آلت ان تزفّ إليه قميص القداس ، فحمله في محفظته ، كما أنّ أباه أهداه قنينة صغيرة من خمرة الكرمة التي طالما سقاها جان ماري بعرق جبينه .

أُسعد بهذه الخلوة في الطريق ، وحيداً مع ربّه ، لا أحد يلهيه عن التأمّل بالمسيح ، الكاهن الأوّل ، و بذبيحة الصليب السريّة التي تُقدّم كلّ يوم على مذابحنا . وكان عليه اجتياز مئة كيلومتر لبلوغ الأرب .

بمقدار ما راح يطوي الطريق ، كانت قمم جبال الألب تتجلّى لناظريه خلاّبة ناصعة البياض ، تحاكي برونقها طهارة نفسه وقدسيّة ذلك السرّ العظيم الذي سيظفر به .

وصل إلى غرونوبل نهار السبت مساء ، في الثاني عشر من آب . وفي الثالث عشر منه ، تأثّر طلاّب الإكليريكيّة في هذه المدينة ، لدى رؤيتهم حرارة المتقدّم إلى السيامة . وعندما أجاب ، وسط الحاضرين الخاشعين : ((هاءنذا)) بانطلاقة وعفويّة نابعتين من الأعماق ، أجمع الكل على أنه قديس أو ملاك هبط من السماء .

و احتفل في اليوم التالي بقدّاسه الأوّل في كنيسة الإكليريكيّة فنزل ربّ الكون، عند الكلام الجوهريّ ، تحت أشكال الخبز والخمر ...

ولبث الأب جان ماري أيضاً في غرونوبل نهار الخامس عشر ، عيد انتقال السيّدة إلى السماء . ثمّ قفل راجعاً بقلب متهلّل طافح بالفرح ، ونفسه تترنّم بنشيد العذراء : ((تعظّم نفسي الربّ ، فقد ابتهجت روحي بالله مخلّصي))... ذلك النشيد المنبثق من أولئك الذين يحملون المخلّص في داخلهم .

وهناك في إيكولّي ، ركع معلّمه الوقور القديس ، الأب باليه ، لينال بركته . ثم قاده إلى الهيكل .

وعمّت الفرحة بيت آل فيانّيه ، في دارديلّي ، عندما ولجه الكاهن الجديد قبل الاحتفال بالقداس الأوّل أمام أهل قريته .

وكانت الدموع مؤتلقة في عيون أخواته وعيني أخيه فرانسوا وأبيه الشيخ الذي ما زال رغم داء العصبيّ كالرمح المثقّف .

وقال له أبوه : ((وجّهت إليك في ما مضى ، يا جان ماري ، كلمات جافية قاسية ، إذ كنت أعتبر رغبتك في الكهنوت ضرباً من الجنون . وأمّا اليوم ، فأنا على يقين أن أُمّك كانت على صواب ، وهي لم تشكّ يوماً في صحّة دعوتك)) .

فأجاب جان ماري بصوت راعش : ((أجل ، أُمّي)) ! ..

وانطلقت الأجراس تصدح برنينها العذب عندما دخل الكاهن الجديد الكنيسة لإقامة القداس الأوّل ، وإذا الكنيسة تغصّ بالمؤمنين ، وكلّهم يعلمون ما قاساه جان ماري من متاعب ليصل إلى هذه الساعة المرموقة . فحنوا رؤوسهم تجلّةً واحتراماً لنيل البركة .

وبعد القداس اتّجه حالاً إلى المقبرة صحبة ذويه ، و انتصب أمام قبر بسيط ، قبر أُمّه ، فاستغفرها كلّ إساءته التي فرطت منه تجاهها ، عن عَمْد أو ضعف، كما أنه شكر لها تشجيعها إيّاه على متابعة سيرة نحو الهدف المرتجى رغم كل صعوبة . وأخيراً رفع يده ومنحها بركته الكهنوتيّة .

وعيّن الأب جان ماري نائب قرية إيكولّي ليتدرّب قرب معلّمه الأب باليه على الخدمة الراعويّة . فسُرّ الأهلون أيّما سرور ، وأخذوا يردّدون في سهراتهم و منتدياتهم : ((خلّف في نفسنا الأب فيانّيه أطيب الأثر يوم كان تلميذاً في ربوعنا ، فما أروع وأعمق ما يكون تأثيره الآن ، وقد أضحى كاهناً في قريتنا. حالفنا الحظّ ، ولا ريب ، فرحنا ننعم بكاهنين قديسين)) .

من سنة 1815 إلى سنة 1818 :

كان من عادة النائب الجديد أن يجمع الأولاد من حوله كلّ أسبوع ، ليلقّنهم التعليم الدينيّ ، فيروي لهم القصص الممتعة المؤثّرة ، بلباقة ورشاقة ، وهم متراصّون حوله بشغف المستمع المحبور ، لا يقوون على المكوث في أمكنتهم الخاصّة جالسين على المقاعد ، في نشوة ممّا يسمعون ويرون .

وتهافت أهل الرعيّة إليه للاعتراف بخطاياهم ، نهار السبت بعد الظهر من كل أسبوع ، فكان حبيس بيت الاعتراف طوال ساعات ، وهو يغسل النفوس، و يشجّع و يؤنّب ... وكم من مرّة

حجبَ الحلّة عن بعض الخاطئين المتصلّبين، المفتقرين إلى التوبة الحقيقيّة ، أو الرافضين تجنّب أسباب الخطيئة ، فيقول لهم بعطف مشوب بالتحضيض : ((السبت المقبل تأتون ثانية للاعتراف ، و نفسكم موسومة بالندامة الفضلى)) .

وطوال الأسبوع كان يكتفي بالضروريّ الزهديّ من الطعام ، ويلبس المِسْح ، وهو قميص مخشَوشِن يخدش الجسد عند كلّ حركة ، ويجلد نفسه حتى الدم كلَ يوم ، ويقضي ساعات متتالية جاثياً أمام القربان المقدس يذري الدموع ساخنة ويرفع الابتهالات حَرّى ... حتى إذا أقبل السبت ، رأى ، والعزاء يغمر داخله ، أولئك الخطأة المتمرّدين قد لان عودهم هذه المرّة ، وهم يتحلّون بالتوبة الخالصة الصِرْف ، ويبدون الاستعداد الجميل لإصلاح ذواتهم.

ولاحظ الأب شارل باليه هذه الإماتات كلّها يرتاح إليها نائبه دون أن تؤذي صحتّه ، أو تعوقه عن أداء واجبه اليوميّ ، فابتسم ابتسامة الرضى ، إذ كان هو نفسه منذ أمد بعيد يركن إلى مثل هذه الحياة التقشّفيّة ، و يتّخذها وسيلة ناجعة لإصلاح نفسه واهتداء الخطأة .

وكم من مرّة حار لبّ الطاهية لدى رؤيتها قطعة اللحم الطازجة تعود إلى المطبخ سالمة ، لم يمسّها الخوري ونائبه ، رغبة في التزهّد وقهر الذات .

أجل ، كان هذان الكاهنان القديسان يتنافسان في أساليب الإماتة دون إلحاق الضرر بصحتّهما، حريصين كلّ الحرص على ألاّ تحول الإماتة دون النهوض بأعباء الواجب على أحسن وجه ، هادفين إلى التكفير عن خطايا أولئك الذين لا يرومون هداية وتقويماً و إصلاحاً .

فالإماتة من أجل الإماتة مبتذلة لا معنى لها ، ولكنّها تزدهي وتضحي نبّراساً للحقّ ، إذا اتّخذت وسيلة أيّ وسيلة لتشديد العزيمة وتقوية الإرادة في محاربة الشرّ في نفسنا ونفوس

الآخرين . فإذا كان الإنسان لا يرفض لنفسه ، حيناً بعد حين ، بعض الطيّبات الحلال ، لتقوية الإرادة ، فكيف يستطيع من بعد أن يجنّب نفسه الحرام الذي يبدو في ظاهره طيّباً ؟ !

ولنعلمنّ جيّداً أن كل الناس ليسوا مدعوّين إلى حياة التقشّف التي اعتنقها الأب القديس جان ماري فيانيّه ، ولكن بمقدور كلّ إنسان التدرّب على إماتات جسديّة توائم مزاجه وصحته ، حتى ننعم جميعنا بتلك الإرادة الصلبة الجبّارة ، فنعلن حرباً مقدّسة على ألوان الشرّ والفساد .

* * *

سُرّ الخوري باليه لمّا اكتحلت عيناه بمشاهدة أهل القرية أجمعين يتسابقون إلى الاعتراف بخطاياهم عند نائبه ، وهم لا يكادون يلتفتون إليه ، فقال : ((له أن ينمو ولي أن أنقض)) ، مردّداً ما صرّح به قديماً القديس يوحنّا المعمدان يوم عاين تلاميذه والقوم المحتشدين يتركونه ويتبعون السيّد المسيح ، دون الاستسلام لعاطفة الحسد ، وقلبه يمور بفيض من الحبور المقدّس .

وكانت روحا الخوري ونائبه متّحدتين برباط أخويّ رائع : يصلّيان ساعات الفرض الكنسيّ معاً، و يزوران معاً المرضى ، وينصرفان مراراً إلى النزهة معاً خارج القرية ، لترويح النفس و تدارُس شؤون الرعيّة في غمرة من مباهج الطبيعة و روائها ، فيطرح الأب فيانيّه السؤال تلو السؤال ، مستفيداً من خبرة الخوري الذي ناهز الثالثة والستين من عمره ، وهو مَنْ هو في مضمار العلم و الفضيلة .

وتنافس الكاهنان كذلك في أعمال المحبّة : لقد كان دَخْل الخوري هزيلاً ، فلا يكاد يكفي لسدّ نفقات الأنطش ، فيتسابق أهل الرعيّة عندئذ حاملين الهدايا الطيّبة خلسةً إلى الطاهية لتقدّمها

إلى الكاهنَين أثناء وجبة الطعام . فإذا ما لاحظ الخوري وجود هذه الهدايا في المطبخ ، حملها هو بدوره و وزعّها تحت جنح الظلام على الفقراء المعدمين .

أمّا النائب فكاد يجود بآخر فلس في جيبه على المعوزين ، ويتخلّى لهم عن ثيابه الداخليّة . ولاحظ الخوري باليه أنّ قدمي البنطلون الباديتين تحت ثوب نائبه ، متهدّلتين على الحذاء ، أضحتا باليتين وأُشبعتا رتْقاً و ترقيعاً . فسارع إلى مدينة ليون قُبيل عيد الميلاد ، وجلب له منها بنطلوناً قشيباً رائعاً ، قائلاً له : ((إنه هديّة صديقي القديم السيّد جاريكو ، الصناعيّ الكبير في الألبسة . إلبسه بدل بنطلونك الخلَق المهترئ . وعليك الذهاب من بعد إلى ليون في أقرب وقت لإسداء الشكر إلى هذا الصديق المحسن)) .

فتناول الأب فيانيّه البنطلون متنهّداً وعلّقه في الخزانة . و بُعيَد السنة الجديدة ببضعة أيّام ذكّر الخوري نائبه بواجب المضيّ إلى ليون لتقديم الشكر ، وقال له : ((إيّاك أن تنسى لبس البنطلون في هذه المناسبة)) .

فعمل الأب فيانيّه بنصيحة خوريه ، واتّجه إلى مدينة ليون ، في جوّ عاصف تنهمر فيه الثلوج ويغطي فيه الجليد أديم الأرض . فاستقبله السيّد جاريكو بترحاب ودعاه إلى تناول طعام الغذاء.

وأثناء الوليمة الفاخرة طفقت بنت السيّد جاريكو ، الآنسة بولين ، تروي للأب فيانّيه أخبار رحلة قامت بها إلى رومة ، والأب يكاد يكون ساهياً غير مكترث . ولكنّه ما عتّم أن أرهف أذنيه ، عندما وصلت الآنسة بحديثها إلى الديماميس الرومانيّة ، تلك السراديب المتشعّبة في باطن الأرض التي استخدمها المسيحيّون الأوّلون مساكن لهم يتوارون فيها عن أنظار المضطهدين الوثنيّين .

و ازداد شغفه بهذه الأخبار إذ أطلعته الآنسة أنها تمتّعت في ديماس القديسة برسكلّة برؤية قبر قديسة عذراء استشهدت في تلك الآونة السحيقة ، وقد نُقشت على لوحة قبرها سعفة الاستشهاد وسهم نافذ ...

فسألها الأب فيانّيه : ((ما اسم هذه الفتاة القديسة)) ؟

- حفرت على قبرها هذه الكلمات : ((سلام لك يا فيلومينا)) .

فردّد الأب بتأثّر ظاهر : ((فيلومينا)) ... ثم نهض شاكراً و ودّع المحسنين إليه واتّخذ طريق العودة .

وفيما هو في الطريق صادف شحّاذاً هرماً يرتعد من البرد . ففتّش الأب جيوبه فلم يعثر فيها على فلس . عندئذ قال له الشحّاذ متهكّماً : ((أنت دافئ سعيد في ثيابك ، وأنا ألبس الأسمال الرثّة دانقاً خافق الصدر ، مرتجف الفرائص)) .

- ولكني لا أستطيع إعطاءك ثوبي الأسود المقدس .

وسرعان ما التمعت عينا الأب كما لو أصاب المرمى ، وأردف : ((لديّ بنطلون جديد . فما رأيك لو استبدلتُ بنطلونك ببنطلوني)) ؟

- أحقّاً ؟
- هو الحقّ لا خداع فيه .
- إذن قبلت بالصَفْقة .
- فتعال معي خلف تلك العوسجة .

ومضيا معاً ، فخلع كلٌّ منهما بنطلونه ودفعه إلى الثاني وتباع الأب طريقه مرتاح الضمير منشرح الصدر ، مردّداً في داخله : ((العطاء أكثر غبطة من الأخذ)) . و أمّا الشحّاذ فقد ابتسم ابتسامة الرضى والسلوان ، وهو يعي هامساً في الصميم : ((هذا الكاهن هو بطل من أبطال المحبّة)) .

بلغ الأب الأنطش فهشّ له الخوري شارل باليه ، و سأله : ((هل سررت بهذه الرحلة)) ؟

- كثيراً .
- وكيف وجدت ... البنطلون ؟ ..

إلاّ أنّ الضياء ذوى في عيني الخوري لمّا وقعتا على الجزء الأسفل من بنطلون غريب لا يضاهيه أيّ بنطلون آخر في التفتّت والتمزّق .

فتضاحك الأب فيانيّه ، و روى لخوريه قصتّه مع الشحّاذ و طمْأنه : ((أعود الآن إلى بنطلوني القديم وأصلح ما بلي منه)) .

- أنت دوماً متمرّس في عاداتك ، تأبى كلّ إصلاح ...

و لمّا استنام الأب فيانّيه إلى فراشه ، لم يتوانَ عن مناجاة القديسة فيلومينا في صلاته ، لأوّل مرّة .

شعر بحاجة إلى هذه المناجاة ، بعد أن أحسّ بقوى الجحيم الثائرة : فالخطايا التي تصدع أذنيه في بيت الاعتراف ممعنة في الفساد ، وهي لم تخطر بباله قطّ في حياته ، واستبان له أن يد الشيطان تحاول اعتصار قلبه و تمزيقه ، ذلك القلب الطاهر الذي ما برح أنقى من أضواء الربيع الزاهية ومن زنابق الحقول . فلقد ثار ثائر عدوّ الإنسان منذ بدء الخليقة ، محاولاً

تحطيم ذلك القلب ، ولا سيّما و إنّ الأب جان ماري ينتشل من بين مخالبه الفاحمة النفوس المتهوّرة ، و يوجّهها إلى الله أبيها السماويّ .

وهنالك الأحلام المزعجة تحرم الكاهن القديس نومه الهنيء . فبثّ مرشده الأب باليه ما يشعر به من مخاوف ، فطمْأنه المرشد الحكيم ونصحه باللجوء إلى العذراء مريم . ومنذ ذلك الحين راح الأب فيانيّه يضيف إلى صلواته كل يوم صلاة خاصّة بالعذراء القدّيسة ، وهذا الابتهال بعد كلّ ساعة من ساعات الفرض الكنسيّ : ((لنسبّح العذراء النقيّة الفائقة القداسة ، أُمّ الله ، إلى الأبد ، آمين)) .

ولقد صرّح في ما بعد إلى أحد أصدقائه الكهنة : ((منذ أن اتّبعت نصيحة مرشدي الأب باليه، لم يسمح الله أبداً أن يهاجمني الشيطان بتجاربه ، ولو مرّة واحدة)) ...

أجل ! لقد تنافس الأبوان ، الخوري و نائبه ، في ميادين الإماتة ، ومع هذا فإنّ كلاً منهما كان يبرّد من اشتعال الرغبة عند صاحبه في انتهاج طريق التقشّف ، فيقول الخوري لنائبه :

- لا تزال شابّاً غضّ الإهاب ، طريء العود ، فلا تستسلمنّ لهذا الحدّ من الإماتة .
- و أنت يا خوريّ أثقلت السنون كاهليك ، فارأف بنفسك ، أمّا أنا فأعرف كيف أقيس الإماتة على قدر ما تسمح به صحتّي ، لأني شابّ قويّ .

***

و مرّت سنتان . وفي شباط من سنة 1816 ، أُصيب الأب باليه بقرح خبيث في فخده ألزمه الفراش ، فاضطّر عندئذ نائبه إلى الاضطلاع بعبء الرعيّة وحده ، دون أن

يتناسى الخوري . فقد كان يجلس إلى جانبه طوال ساعات يعزّيه و يشدّد من عزيمته ويقدّم له كلّ الخدمات . ولم يفلح الطبّ آنذاك في شفائه .

و تطّور الداء فأُصيب العظم بالتعفّن والفساد حتى شارف الخوري الموت المحتوم .

فاستجمع قواه المنهارة ، وسحب من تحت الوسادة المسْح الشائك الذي كان يرتديه على الصدر ، والمجلدة ، وقدّمهما إلى نائبه ، ((أخْفهِما جيّداً ، فلا تقع عليهم أعين الرعيّة ، و الاّ اعتبروني قديساً بخلاف ما أنا عليه ، و حرموني صلواتهم بعد الممات ، فأبقى رهْنَ المطهر آماداً طويلة)) .

فأجابه الأب فيانّيه ، والدموع تنهلّ من عينيه : ((أنت قديس أبتِ ، لا نصيب لك غير السماء)) .

- من يعرف ؟ ولكنّ الله رحيم ، الله رحيم .

وكانت هذه الكلمات آخر ما فاه به الأب باليه ، مطلقاً أنفاسه الأخيرة .

فأطبق له الأب جان ماري عينيه ، وخُيّل له أنه فقد أباه ، فاشتركت الرعيّة كلّها بجنازته . كان الأب فيانّيه يردّد وهو ينتحب : ((بفقده خسرت كنزاً كبيراً)) .

* * *

و خَلَف الأب باليه خوري جديد هو الأب تريبييه ، لم يكن مستعدّاً بحال من الأحوال أن يجعل من الأنطَش ديراً للمتزهدّين . فشعرت السلطة الكنسيّة في مدينة ليون أن النائب والخوري المذكور ليسا مؤهّلين للعيش معاً . فعيّنت الأب فيانّيه خوري قرية **((أرْس))**

وقال له النائب العامّ ، الأب كوربون ، وهو يودّعه : ((أرس قرية صغيرة تضمّ مئتين وثلاثين نفساً . دخلُك لا يتجاوز الخمس مئة فرنك في السنة ، وتلك لعمري قيمة زهيدة .

- لا بـأس . هذه القيمة هي أكثر مّما أحتاج اليه .

ثمّ أضاف الأب كوربون : ((الدين هزيل في هذه الرعيّة ، واني لآمل أن تحمله اليها)) .

وقال الأب تريببيه في إيكولّي : ((ان الرعايا المنتشرة في مقاطعة ((الآن)) ، حيث ستقيم ، هي بمثابة سيبيريا للكهنة . كنت أودّ لو عُيّنت في رعيّة غير أرس الحقيرة التي يجول فيها البقر أكثر من البشر .

- أنا لا أتذمّر من ذلك ، لأنّ أيّ رعيّة أكبر تعيق مسعاي .

وكان الأسف شديداً في قلوب أهل إيكولّي ، عندما ارتحل عنهم الأب جان ماري فيانّيه ...

خوري أرس سنة 1818

في يوم من شباط مكفهّر ملبّد بالغيوم ، سار الأب فيانّيه جالساً في عربة متقادمة العهد تئنّ على الطريق و تزمجر ، وإلى جانبه أمتعته البسيطة ، وقد قبعت في إحدى الزوايا امرأة كانت له نِعَم المعينة طوال إقامته في إيكولّي ، تغسل له الثياب و ترفأها مجّاناً ، هي السيّدة بيبوست . لقد أخذت على نفسها أن تساعد الأب في انتقاله الصعب إلى أرس . ومشى بحذاء البقرتين اللتين تجرّان العربة صهرُ الأب ، المزارع بول ميلان .

دخلوا وادي نهر الصُون ، والضباب الكثيف يلامس الأرض ، وعجلات العربة تكاد تغور في الوحل ، والبقرتان لاهثتان من الشدّ و التعنّت . وكم من مرّة أُلجئ بول ميلان أ، يلقي أخشاباً تحت تلك العجلات حتى تتمكّن من العبور .

وما إن خلصوا من الوادي حتى راحوا يجاهدون في التقدّم ، مخترقين سهول الدومب المليئة بالمستنقعات الجليديّة ، فيما الوحل أضحى أكثر عقماً و لزاجة ، وقد بانت في الأفق تلال شجراء .

أخيراً وصلوا إلى مفترق طريق ، ولم يعودوا يعرفون اتّجاههم . فأخذت عين الكاهن راعياً صغيراً على سفح هضبة ، فصاح به : ((أتعرف أيها الصغير طريق رأس)) ؟

- أجل ، كما أعرف جيوبي .
- أبإمكانك أن تقودنا إلى هذه القرية ؟

فالتمعت عينا الراعي معلّلاً النفس ببعض الدُرَيهمات ، وأجاب : ((بكلّ سرور)) .

- و قطيعك ؟
- لا ذئاب هنا ولا سُرّاق .

وفي الطريق سأل الولد الكاهن : ((تكون خورينا الجديد)) ؟

- أجل يا ...
- أُدعى أنطوان جيفر .
- أجل يا أنطوان . وآمل أن أُسعَد بهذه القرية .
- ليس لك ، أبتِ ، كثير من العمل .

- لماذا ؟
- لأن الأهلين لا يعرفون طريق الكنيسة ، بل يؤثرون أجواء المقاهي والتسليات الأخَر .
- و أنت يا أنطوان ، أما تدخل الكنيسة ؟
- أنا بغنى عنها لأني محيط بكل المعلومات الدينيّة .

عندئذ تنهّد الخوري وتابع أسئلته : ((هاتِ عرّفني بالأقانيم الثلاثة المقدّسة)) .

- سؤالك سهل : الأقانيم الثلاثة هي يسوع ومريم و يوسف .

فأصعدت السيّدة بيبوست زفرة من صدرها وقالت : ((أمامك جهد كبير ، أبتِ)) .

وأعقب الأب : ((هل حظيت بالمناولة الأولى)) ؟

- ما هي المناولة ؟
- سأُطلعك عليها في ما بعد .
- لا وقت لي ، فعليّ حراسة القطيع .
- أنت في خطأ مبين يا أنطوان . يجب دائماً صَرْف وقت كافٍ لعبادة الله .

* * *

و ساروا جميعاً بمحاذاة ساقية إلى أن انبلجت فجأة البيوت الأولى منفرجة من الضباب ، وفي وسطها كنيسة صغيرة تعلوها قبّة جرس متواضعة . فقال الراعي : ((هي ذي أرس)) ! فما

كان من الأب فيانيّه إلاّ أن جثا على الأرض المغطّاة بالماء والوحل ، ضامّاً يديه إلى صدره ، ولجّ في الصلاة . فاستوقفه الراعي : ((ما بك ؟ لقد ارتطمت بالوحل)) .

لكنّ الخوري ما عبئ به ، وكأنه في غير دنيا . ثمّ نهض و تمتم : ((وكلتُ أبرشيّتي إلى ملاكها الحارس)) . واتبعوا سيرهم في الطريق الصاعدة ، إلى أ، انتهوا إلى القرية ، فأشار الراعي إلى بناء زَرِيّ : ((هذا هو مقهى الوحش ، وثمّة ثلاثة مقاهٍ أخرى)) .

فانتفضت السيدة بيبوست : ((أربعة مقاهٍ في قرية صغيرة)) ؟

وتابع الراعي : ((في تلك المزرعة ، هنالك ، يقطن المختار ، السيّد ماندي ، وهو رجل تقيّ ثريّ ، يملك ثلاث بقرات وعدداً وافراً من الأغنام . وبقربه السيّد ميشال سينيبه ، المستشار البلديّ)) .

و مرّوا حيال حانوت للبيطرة ، فأردف الراعي : ((هوذا المعلّم البيطريّ بيكار ، والرجل المسك بقدم الحصان هو الحوذي بيتون ، إنّه في سُكر متواصل ، لا يكاد يعقل إلاّ بالحُشاشة)).

عندئذ توقّف الرجلان عن العمل ، فرفع البيطريّ قبعته احتراماً ، وتقدّم الحوذيّ : ((أنت هو الكاهن الجديد ، على ما أظنّ)) .

- لم تخطئ الظنّ . بيد أني أراك مخموراً مترنّحاً من السُكر .
- لستُ سكران . ولكن عندما تقع عيناي على كاهن ، تتراقص أمام ناظريّ فراشات سوداء . جرفَك الشيطان إليه !

فأسكته البيطريّ عند هذه الكلمة ، وقال للكاهن : ((لا تكن قاسياً في البداية يا حضرة الخوري ، فالسُقاة لا يعمّرون طويلاً في الحكم . دعنا و شأننا فنتركك وِانك .

- لم أجئ إلى هنا حتى أترككم و شأنكم . جئت للخدمة وحسبُ .

عندئذ لوّح الحوذيّ بسوطه وأهاب بالخوري : ((اغرُبْ عنّا إلى الشيطان)) ! فانتزع البيطريّ بيكار منه السوط برشاقة ورماه إلى الوراء . ثمّ توجّه إلى الكاهن : ((على مهلك أبتِ . لن تجعل منّا قديسين منذ البدء)) .

- شكرانك أيّها الصديق .

و أوقف الراعي هذه المسرحيّة قائلا : ((هنالك الأنطش أبت)) .

- أوّد زيارة الكنيسة قبل كلّ شيء .
- ها أنت قد وصلت إذن .

و مدّ أنطوان يده ، فأجابه الكاهن : ((هديتني إلى طريق الكنيسة ، وأنا سأُهديك إلى طريق السماء)) .

- ولكني أريد بعض الدُرَيهمات فأعيش قبل بلوغي السماء .

فسحبت السيّدة بيبوست بيضة من الزاد الذي اصطحبته من إيكولّي ، وقدّمتها إليه .فاكتفى بها الراعي ، وابتسم وهو يرنو إلى الكاهن : ((تلوح عليك سيماء الفقر ، يا حضرة الخوري ، فلا أُطالبك بأكثر مّما نلت منك)) .

ودخل الأب جان ماري الكنيسة فألفاها في حالة زريّة إذ لم يكن القداس قد أُقيم فيها منذ أسابيع ، والغبار يكسو المقاعد وكلّ مكان ، والمذبح بلا رونق ولا تزيين ، وقنديل القربان المقدّس منطفئ حزين ... فخامره الشكّ في حضور القربان المقدس ، ففتّش عن مفتاح بيت القربان حتى عثر عليه في السكريستيّا . عندئذ فتح ذلك البيت فعثر على القربان ! أجل ، لا يزال المسيح مشعّاً في أرس ...

ومال الأب إلى القنديل فملأه زيتاً وأشعل الفتيلة ، فتألّقت اللهبة مرّة أخرى أمام ربّ الكون .

وجثا الكاهن على درجات المذبح ، و خبأ وجهه بين يديه ، وبكى ... ثمّ ضاع في صلاته .

وبعد وقت غير يسير ، هزّته السيّدة بيبوست من كتفه : ((أبتِ ، سيدركنا الظلام . فهلمّ إلى الأنطش)) .

وفيما هو منطلق استوقفته امرأة تدعى السيّدة رينار ، وقالت : ((هذا هو مفتاح الأنطش ، فأهلاً بك أيها الكاهن ، وشكراً لله على قدومك)) .

- أنتِ أوّل من فرح بقدومي في هذه القرية .
- هنالك أناس آخرون سيفرحون أيضاً .

وصلوا إلى الأنطش فوجدوه من طبقتين صغيرتين ، من الآجُرّ الأحمر . أمّا الغرف فكانت خمساً، لكلّ غرفة نافذة . وهنالك حديقة صغيرة بجوار البيت .

وبعد أن جالوا في البيت كلّه أبدت السيّدة بيبوست إعجابها بالأثاث الثمين : ففي الطبقة الأولى مطبخ رحيب وموقد رائع ، وقُدور وصحون وآنية أخرى ، وكلّها من الطراز الأوّل .و إلى

جانب المطبخ المائدةُ وخزانة وساعة كبيرة وطاولة من السنديان المنقوش ومقاعد من المخمل الأخضر وكنبة فخمة .

و ثمّة درج يقود إلى غرفة الخوري في الطبقة الثانية ، فإذا هي تزدهي كذلك بالرياش الثمين من مكتب مدبّج بالنقوش الجميلة ، وكنَبة مغطّاة بقماش أحمر ، وديوان مستطيل ، ومكتبة من الجوز و إسكَملة وسجّادة من المخمل الأحمر .

فقال السيّدة بيبوست معجبة : ((يا لهذا الجمال)) !

إلاّ أن الأب فيانّيه أبدى امتعاضه وهمّه : ((هذا الأثاث يفوق مستواي ، فلا يمكنني أن أرضى به)) .

فأجابت السيّدة رينار : ((لا تستطيع تبديل الأثاث ، لأنّه هبة قصر الآنسة دي غاريه)) .

- لا أنكر ذلك ، ولكن لست بحاجة إليه . أرى أنّ الأهلين في قرية أرس يهتمّون بخوريهم أكثر من اهتمامهم بالله : فالكنيسة مهملة ، وهي ضيّقة لا تستهوي القلوب)).

وهبط الليل ، فالتفت الأب إلى صهره السيّد ميلان : ((غداً ، إن شاء الله ، تنقل بعربتك هذا المتاع الطريف الفاخر من الأنطش إلى قصر الآنسة دي غاريه . فإن أهل أرس سيخافون ، ولا شكّ ، خَدش هذه الطنافس الحمراء والكنبات النفيسة ، عندما يأتوني بأحذيتهم القرويّة الغليظة ، وبثيابهم الخشنة المرقّعة)) .

* * *

أثناء الليل عملت السيّدتان بيبوست و رينار في تنظيف الكنيسة ، حتى إذا تفتّقت تباشير الصباح ، قرع الأب جان ماري الجرس الصغير ، فقال أهل الرعية : ((لدينا كاهن في أرس)) ، ثم انصرفوا إلى أعمالهم كالمعتاد . ولم يقبل منهم إلى الصلاة سوى بعض العجائز .

وبعد بضع ساعات انتقل الأب إلى قصر المركيزة التي ذرّفت على الرابعة والستين من عمرها ، فاستقبلته ببشاشة . وعندما وقفت على مطلبه ساءلته : ((أما يروقك أثاث الأنطش)) ؟

- لا أستحقّه ، فهو من أعلاق الرياش الفاخر . أنا ابن فلاّح قرويّ ، كنت أنام في ما مضى في القبو . بيد أني أودّ لو تزينّين الكنيسة ، فتبدّلين سجّادها الخَلَق القديم ، و مدّات المذبح التي عفّاها الزمان ، والبذلات الحائلة اللون ، إذ لا يجوز أن يكون الله آخر من نهتمّ به .
- لقد أثّر بي تجرّدك أيها الكاهن ، واهتمامك ببيت الله . سأرى كيف أُحقّق رغباتك .

و ودّع الأب المركيزة ، ولسان حاله يقول : ((بعث إليّ الله نفساً نبيلة تهوى الخير)) . أمّا هي فردّدت في سرّها : ((أرسلت إلينا المطرانيّة كاهناً صالحاً غيوراً . أظنّ أنه يحقّ لأرس الافتخار بهذا الكاهن الفاضل القديس)) .

في الثالث عشر من شباط ، نهار الأحد ، احتُفل بتعيين الأب جان ماري فيانّيه خوريَ أرس ، بحضور بلدة ميزاريو المجاورة . في الواقع لم تكن أرس مستقلّة ، بل متعلّقة قانونياً بهذه البلدة، ولم يكن يحقّ لكاهن أرس لقب ((خوري)) بل ((نائب)) ، ولكن خُلع عليه ذلك اللقب من قبيل التفاؤل والتيمّن .

تسارع كل أهل القرية إلى هذا الاحتفال ، ليروا إلى أيّ صنف من الكهنة ينتمي خوريهم ، فقال أحدهم : ((لا يستطيع أن يكون من الطراز الأوّل . فقريتنا هذه الضائعة المجهولة لا يليق بها غير الكهنة المرضى العاجزين ، وأصحاب القدرات العلميّة الهزيلة)) .

وكانت الرعيّة كلّها مصوّبة أنظارها إلى منبر الخطابة ، مستعدّة لإصدار الحكم على الكاهن من خلال أوّل عظة .

وشرع جان ماري في التكلّم بعد الإنجيل بصوت مضطرب متردّد . ثمّ ما عتّم أن أطلق غيرته وحبّه من عقالهما ، فأضحى التعبير أكثر سهولة و نفاذاً ، مستخدماً الألفاظ والمعاني السهلة البسيطة ، ففهم كلّ الحاضرين كباراً و صغاراً .

تكلّم الخوري الجديد عن حداثته يوم كان راعياً صغيراً ، ثمّ تطرّق إلى تلك الساعة المحبّبة التي فيها غدا راعي النفوس : فالهموم تواكبه من جراء هذه المهمّة الخطيرة ، ملقية على كتفيه حملاً ثقيلاً . إلاّ أنّ نعمة الله تؤيّده ليقود القطيع إلى المروج الروحيّة الخصيبة ، مجنّباً إيّاه أشواك الخطيئة ...

كثير من السامعين تأثّروا من كلام الكاهن ، خصوصاً عندما أضاف بصوت نابض : ((ركعت أمام بيت القربان هذا ، وسألت الله ان يهبني اهتداء رعيّتي الجديدة . وهاءنذا مستعدّ أيها السيّد لتحملّ أفدح الآلام حتى أقود إليك النفوس التي وكلتَها إليّ)) .

فخرج المؤمنون آخر القداس ، ولا سيّما النساء ، في صمت معبّر بليغ . ولكنّ العديد من الرجال اتّخذوا طريق المقاهي الأربعة ليتبادلوا تأثيراتهم . فصرّح صاحب مقهى ((النملة)) : ((إلى الآن لا بأس بكلامه ، رغم اتّصاف الوعّاظ في المدينة بفصاحة وفنّ أكثر رفعة و روعة)) .

و علّق الخيّاط الذي كان قد جاب أقطاراً عديدة في حياته ، فاستساغ إبداء الرأي والانتقاد : ((تكلّم الخوري كثيراً عن نفسه ، وهذا ما لا يجوز على الإطلاق)) .

وتابع الحوذيّ بيتون ، وهو يفرغ كوباً من الخمر في حلقه المتسعّر : ((تكلّم عن عصاه كما لو كنّا صبياناً من أهل الأزقّة)) .

فوافق صاحب المقهى : ((أتشيّع رأي بيتون ، و آمل ألاّ يكون الخوري الجديد من المخاصمين أو المتجهّمين ، و إلاّ أُصيب في قريتنا بالإخفاق الذريع)) .

أمّا المختار ، السيّد ماندي ، وهو ممّن يشهد لهم بالرصانة وسداد الرأي ، فقد أعرب في بيته للمستشار البلديّ سينييه عن فكرته : ((كنيستنا فقيرة هي ، غير أنّ كاهننا قديس)) .

* * *

آنَ للسيّدة بيبوست أن تعود إلى ديارها ، فانفردت بالسيّدة رينار ، و أوصتها أن تتعّهد الكاهن الفقير المتجرّد القديس بعنايتها ، فأجابتها السيّدة رينار : ((أنا غسّالة ، وأفخر أن لي ابناً في مدرسة ليون الكبرى يستعدّ للكهنوت . فلسوف اعتني بالأب فيانّيه ، و أغسل له الثياب كما لو كان ابني)) .

- عافاكِ الله أيتها السيّدة الكريمة .
- ولكن ، لماذا أرجع هذا الكاهن الأثاث الفاخر إلى المركيزة ، فأضحى الأنطش كطائر منتوف الريش ؟

- لأنه يودّ أن يعيش على شاكلة المسيح معلّمه ، فلا تخشي همّاً و إرهاقاً ، فهو يكتفي بالنَزْر القليل .

* * *

و انطلقت السيدة رينار في اليوم التالي تهيّئ طعام الغذاء ممّا توفّر لها من مؤونة ادت بها المركيزة ، فيما الأب جان ماري جالس إلى مكتبه في السكريستيّا يعدّ عظة الأحد طوال ساعات، وهو يطالع كتباً ورثها من أستاذه الأب باليه .

ونهض الخوري بعد تبحّره في التقاط الأفكار واختيار الشواهد ، وجثا أمام القربان المقدّس ، وطفق يستعرض بفكره ما قرأه منظّماً المعاني ، غائصاً في التأمّل . ثمّ انتصب وعاد إلى المكتب وأخذ يخطّ على صفحتين حصيلة ما جناه ، وهو يرمق بيت القربان حيناً بعد حين .

ولمّا أتى على كتابة آخر كلمة ، كان الظهر قد مالَ و ولّى . فمضى إلى الأنطش ، ولشدّ ما كانت دهشته عندما رأى على المائدة صحفة تزهو بالفطائر المقليّة الشهيّة . فاكتفى بفطيرتين ، ثم قال للسيّدة رينار : ((أنت عاملة تكسبين أجرك بعرق الجبين ، فلا وقت لديك لتحضير طعامي . فما لك من الآن فصاعداً إلاّ أن تسلقي لي بضع حبّات من البطاطا ، وأن تعيدي الكرّة بعد ثلاثة أيّام أو أربعة)) .

فحاولت السيّدة رينار عندئذ الاحتجاج والتمنّع ، ولكن بلا جدوى ... فقد أبى هذا الكاهن القديس ، بهدي من الروح القدس ، إلاّ ملازمة حياة التقشّف والزهد .

ولكن السيّدة رينار سُرّت لرؤيتها الخبز الأبيض الطريء الذي كانت تأتي به صبيحة كلّ يوم إلى الأنطش ، سيغيب من المطبخ ، ظانّة أن الخوري اغتذى به لتجديد قواه .

وفي أحد الأيّام استرعى انتباهها حديث نشب بين الكاهن و أحد الشحّاذين ، فانحجبت عن الأنظار ، وراحت تسترق السمع مسجّلة في ذهنها ما يدور إزاءها .

سمعت الكاهن يقول للشحّاذ : ((أرى أن أسنانك يا أخي محطّمة لا تقوى على القَضْم والمضْغ والتمزيق ، فهلاّ استبدلت خبزتي البيضاء الطريئة هذه بخبزتك اليابسة القاسية)) ؟

فانفرجت أسارير الشحّاذ الهرم وابتسم حتى بانت أسنانه المهشّمة وقال : ((أترضى بهذا النصيب)) ؟

- رضيت ، ولا سيما و أنا شابّ أتمتّع بأسنان سليمة حادّة .

و جرى التبادل برشاقة ، فاستلّ الأب من جعبة الشحّاذ البالية كسْرات من الخبز معدودات ، هي أشبه بالأحساك وأعطى ذلك المسكين خبزه الأبيض الشهيّ قائلاً : ((سأبلّ خبزك الجافّ أيها الصديق بالماء ، فيسهل عليّ أكله)) .

ومضى الشحّاذ مهلّلاً .

عندئذ هبّت السيّدة من مكمنها ، وطفقت توسع الأب عتاباً و تونيباً : ((أما يروقك خبزي الأبيض حتى تفرّط به دونما حرَج)) ؟

- بلى . ولكن هو المسيح زارنا اليوم في شخص هذا الشحّاذ :

- المسيح ؟ هو براء منه ، أما ترى أن هذا المتسوّل كان مخموراً سكرانَ ؟

- لم ألاحظ ذلك . ولنفترض أنه شرب كأساً من الكحول ، أما يحقّ له ذلك في هذا النهار البارد الرطب ؟
- لا أستطيع أبتِ أن أُباريك في السخاء .

و خفّت إلى مستودع المؤونة فوجدته فارغاً . فعادت إلى الأب مستغربة : ((ماذا فعلت بما ادّخرناه من بقول وحبوب ، وهو عطيّة المركيزة . هل جُدت به على عابري السبيب أيضاً))؟

- جاءني بعض العمّال المعوزين فوهبتهم إيّاه .

و ألقت السيّدة رينار نظرة خاطفة على قصعة البطاطا المسلوقة ، فوجدت حبّاتها متقلّصة دبّ فيها العفن . فتابعت عتابها : ((كيف تأكل منها وهي فاسدة)) ؟

- هي القشرة مؤذية وحسب ، أمّا الداخل فلا يزال صحيحاً طيّباً .
- طلبت منّي تجديد سلْقها كلّ ثلاثة أيّام .
- إذا فرغت القِدْر ، وهي الآن لا تزال تكفيني يومين أو ثلاثة .

فاكتفت السيّدة رينار بهزّ الرأس استنكاراً ، ثمّ ذهبت إلى غرفة النوم . وسرعان ما هرعت إلى الكاهن نادبة : ((لقد سرقوا الحشيّة والأغطية من على السرير ، فأمسى منجرداً لا يرى منه غير الحديد)) .

- لا تقلقي . مرّ بي أحد المشرّدين ، فشكا لي أن امرأته المريضة تنام على الحضيض بلا دثار ، فوهبته ما على السرير من متاع .
- عافاك المولى ! .. وأنت أين تنام ؟
- في كل مكان من هذا البيت الرحيب . فأنا أتدبّر أمري بسهولة .

- وفتّشت السيّدة كلّ روايا الأنطش فعثرت في القبو على أكياس فارغة كانت في ما قبل مملوءة بالبطاطا ، وهي مبسوطة على مسطّح من الأخشاب الصغيرة ... ((هنا ينام الأب فيانّيه)) ... فالتفتت إليه والدمعة تجول في عينيها ، فأجاب ((اعتدت النوم في القبو منذ صغري)) .
- مع الفئران والجرذان الراقصة من حولك ، والمياه متحلّبة من كل مكان في جوّ رطب يسيء إلى صحّتك .
- صحّتي والحمد لله لا تزال جيّدة . ولا تنسي ، سيّدتي أن المسيح له المجد لم يكن ينعم بحجر يسند إليه رأسه .

فقفلت السيّدة رينار ، عند هذا الكلام ، إلى بيتها ، والحسرة والإعجاب يتنازعان فؤادها ، و بثّت ابنتها شكواها : ((آه ، إنه ليصعب الاهتمام بقديس)) !

* * *

ولم يكن الأب فيانّيه ليرتاح . تبادر إلى ذهن الكثيرين آنذاك أن كاهن هذه القرية التي لا تضمّ أكثر من ستين بيتاً ، يقضي سحابة يومه هانئاً وادعاً ، بلا عمل . فالسلطة الكنسيّة ، حتى ذلك العهد ، كانت ترسل إلى هذه القرية كل كاهن أضناه المرض ، أو ينْشد الراحة .

ولكنّ الكاهن الجديد لم يختصّ بالهدوء والارتياح . لقد كان يكدح في تهييء العظات : يؤلّفها بمشقّة ، ثم يعمل في استظهارها مجاهداً ، وهو يتمشّى طوال ساعات في الساحة ، خلف الكنيسة ، مردّداً إيّاها بصوت خافت .

ومع هذا فقد عانى صعوبات جمّة ، وهو على منبر الخطابة نهار الأحد ، فيما المؤمنون حائرون بأمره ، يغضّون الطرف ويخفضون الرؤوس لدى سماعهم الكلمات تنحدر من شفتيه بتعثّر وتردّد. ولم يكن لينطلق محطّماً العوائق ، إلاّ عند تحرّره من ربقة الحفظ والمخطوطات ، فيشهّر الرذيلة عند ذاك بصوته الهادر المقرّع ، ويرسم لوحة هائلة للعقاب المروّع المعدّ لن يرفضون التوبة و يطّرحون إصلاح ذواتهم .

ناشدته المركيزة يوماً : ((لماذا ترفع صوتك كثيراً أثناء العظة ، مع أنه ناعم بليل في الصلاة))؟

- الله ، يا آنسة ، يسمع أدّق نبرات القلب وأخفى هينمات الروح ، أمّا الخطأة فهم في الغالب متصلّبو الأذن ، يرفضون الإصغاء .

و ظلّت الكنيسة خاوية ، والجرس ينادي المؤمنين عبثاً إلى القداس . فهم متحلّقون حول طاولات المقاهي ، يعاقرون المسكرات ، ويلعبون بالورق . قال لهم يوماً صاحب مقهى ((النملة)) ، وقد بلغ منه الحنق أشدّه : ((إنكم أيها الرفاق ، تكدحون طوال الأسبوع في أعمالكم الشاقّة ، وها إن هذا الكاهن الذي قذفت به المطرانيّة إلينا لأنها لا تدري ما تفعل به ، يريد إقصاءكم عن تسليتكم الوحيدة نهار الأحد ، ألا وهي احتساء كأس من الخمرة والتلهّي بالورق)) .

فصفّق له الجمهور المترنّح النشوان طرباً و مراعاةً ... وإذا بالباب يفتح فجأة فيدخل الأب فيانّيه نفسه قبيل القداس ، فيختفي الورق و تنخفض الرؤوس ، ما عدا البعض منها ، فقد ظلّت مرفوعة تبثّ المجابهة والقحة والعنفوان .

فلم يأبه لها الكاهن ، بل طفق يؤنّب و يرهّب و يرغّب ، باسطاً أمامهم العقاب الصارم المنتظر من لدنه تعالى ، إن بقوا يتمادون في تمرّسهم بالرذيلة .

ثمّ قفل راجعاً إلى الكنيسة ...

أمّا هم ، فقد أعادوا سيرتهم الأولى بأشّد هرجاً وعبثاً واندفاعاً وراء السُكْر والعربدة والمجون .

* * *

في مساء مثل هذه الآحاد كان الوهن ينال من خوري أرس ، فيجثو أمام القربان المقدس سائلاً القوّة والعزاء . ثمّ ينهض ، وهجعة من الليل قد انزاحت ، والظلام الحالك يلفّه ، فيتّجه نحو الأنطش ، مكسور الخاطر خافض الرأس .

وهنالك ، أمام النافذة ، يلقي ناظريه على جحافل الظلام ، فتلتقط أُذناه صخَب السكارى . ويلمح من خلال نقاب السواد شبّاناً عائدين من قرية مجاورة ، وهم يغنّون ، ممسكين بأذرع فتيات خبّلهنّ السُكر . وإذا ما وقعت عين أحدهم على الكاهن المنتصب رماه على الفور بالشتيمة السافلة .

هكذا كان الأحد في أرس ، وهكذا كانت نهايته . كان الضجيج بعد ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً ، وفلول الشاربين المتَعْتَعين يخرجون من المقاهي ، و الأضواء تنطفئ في البيوت تِباعاً . ولا يبقى آرقاً غير الخوري وحده يتفحّص الظلام المطبق الدامس .

وفي إحدى هذه الليالي ، والنجوم منحجبة ، أحسّ الكاهن الغائص في تأملاّته أنه ليس وحيداً، إذا راحت الظلمات الدكناء تتجمّع لتولّد كائناً فاحماً غير مألوف ، يكاد يُجسّ بالأصابع .

و خُيّل للأب أنه يشعر بأنفاس هذا الشبح اللاّهبة الحرّى تحيط به من كلّ جانب لتحرقه وتخنقه .

لقد كان الأب فيانّيه يعرف هذا العدوّ الذي يحوم في الليالي القاتمة ، وكأنه أسد فاغر الشِدقْيَن جائع ، يفتّش عن فريسة يلتهمها .

و هبّت الريح عاتية ، واندفعت في قبّة الجرس ، فاهتزّ و أنّ أنيناً مزعجاً كطفل انتُزع من نومه الهادي ... و إذا بصوت يرنّ في أُذن الساهر الوحيد : ((لن تبلغ نتيجة محمودة يا جان ماري... فأنت غير أهل للخدمة الراعويّة ! ألا ادخلْ أحد الأديار ، أو عشْ حياة راهب ناسك. أُترك هذه القرية أرس قبل أن تطرد منها رمياً بالحجارة)) .

و انفجر ضحكٌ في الظلام ! .. أهو صاعد من حنجرة سكّير متأخّر ؟ أم من الشيطان الخبيث نفسه ، وهو يهزأ من محاربه الأشدّ خطراً و تهجّماً ؟

وشعر الأب بأن قلبه سينفطر : ما هو مصير هذه القرية التي تصمّ آذانها فلا تعي صوت الراعي الأمين المحبّ الغيور ؟ وما هو مآل هذا الراعي المرذول المهان ؟

فضمّ يديه إلى صدره و حاول الصلاة ، إلاّ أن الكلمات انطفأت على شفتيه : ((أما من تعزية لي أيها السيّد في هذه الليلة الهائلة)) ؟

ونظر إلى الكنيسة ، فانبعث منها بصيص القنديل المتألّق أمام القربان ، وإذا بالشعاع المتأرجح يبثّه كلمات نديّة كأنفاس الصباح : ((لا تخف ، فأنا معك)) ! ..

فتنفّس الصعداء عميقاً ، وفي عزمة متابعة الجهاد ضدّ قوى الشرّ ، مهما جار الزمان وتوالت المصاعب والحِدثْان .

ثمّ نزل إلى القبو ، وتناول المجلدة وشرع يجلد كتفيه بلا رحمة ، وحنايا القوب ترجّع صدى الضربات ، إلى أن خانته قوّته فسقط على فراشه الحقير .

وكان حيناً بعد حين يستيقظ من نومه فيُخيّل إليه أنه يسمع الشيطان مسترسلاً في الضحك .

وقبل انبلاج الصباح نهض فحمل الفانوس ومضى إلى الكنيسة ، وركع أمام القربان المقدّس مستمطراً العون والعزاء . وبمقدار ما بقيت عظاته بلا منفعة ، ارتاح هو إلى ألوان الإماتة ، فلازم الصوم الكامل أحياناً طوال أيّام ، وقد وهب الفقراء كل ما يملك .

رآه أهل أرس يوماً عائداً إلى الأنطش حافيَ القدمين ، خاشع الأبصار ، يضمّ بشغف القربان المقدس إلى صدره ، بعد أن زوّد به أحد المرضى . فتحروّا الحقيقة فعلموا أنه تخلّى عن حذائه لأحد الفقراء المعدمين .

وكم من مرّة قصد بلدة ميزاريو المجاورة فبثّ خوريها الشيخ ، الأب ديكرو ، لواعج نفسه . قال له مرّة : ((لو كنتُ قديساً لأمدّني الله بهداية أبناء أرس ، لكنني ، وبا للأسف ، خاطئ مسكين)) .

فتأمّل الكاهن العجوز زميله الشابّ ، فاثّر فيه وجهه الشاحب المنجرد وأجابه : ((لا تجزعنّ، بل اعتصم بالصبر . إن العوسجة لا تسقط عند أوّل ضربة على جذعها ، وكذلك

الشرّ... واعلم أن حبّة القمح تبقى تحت الوحول والثلوج والعواصف أيّاماً بل أشهراً ، فإذا أقبل الربيع صدّعت الأرض من فوقها ، وانطلقت إلى العلاء زاهية مشرقة ميّاسة . وأملي وطيد أن رعيّة أرس ستزدهي يوماً في غلائل من الأنوار السماويّة الساطعة ، بعد حقبة مديدة من الظلمات والرياح والجليد)) .

وفي اليوم التالي وجد الأب فيانّيه ، وهو يفتح الكنيسة صباحاً ، رجلاً في السبعين من عمره قرب الباب ، وقد ألقى على الحائط رفشه ومعوله . فقال له الكاهن بعد التحيّة : ((ما اسمك)) ؟

- لويس شوفانجون .
- ما بُغيتك في هذه الساعة المبكّرة ؟
- أتيت أطلب من يسوع القوّة والنشاط قبل العمل في حقلي .
- وماذا تقول له ؟
- لا شيء . أرنو إليه بناظريّ ، و يرنو إليّ !

فأُعجب الأب بهذا الشيخ أيّما إعجاب ، وشدّ يده مشجّعاً ، فأحسّ بأن سلكاً كهربائيّاً قد امتدّ بين الاثنين ، ينقل إليه الحرارة والتعزية . أجل ! ليس كلّ الناس أشراراً منحرفين في أرس ، بل هنالك أيضاً أُناس طيّبون صلاّح ولو قلّة .

* * *

عند الظهيرة جاءته أخته مرغريتا صحبة السيّدة بيبوست ، لتزوراه و تتفقّدا أحواله . فهالهما أنْ رأتا وجنتيه هزيلتين ، قد نضب الدم فيهما . فقال لهما : ((يجفو عليّ ألاّ أستطيع تقديم الغذاء لكما . ليس في حوزتي سوى قليل من البطاطا المسلوقة في هذه القصعة)) .

فنظرتا ، فوجدتا العفن يجتاح نصفها . عندئذ أوسعتاه ملامة و توبيخاً . وأسرعت مرغريتا إلى المطبخ تنقّب في الزوايا عن طعام ، فلم تعثر إلاّ على حفنة من الطحين وبيضتين ، كان الكاهن قد نسيها فلم تذهب في سبيلها إلى أحد الفقراء الملقين .

فقالت مرغريتا : ((سأُهيّئ صحناً من الفطائر المقليّة)) .

فأجابها أخوها : ((افعلي ما بدا لك . هاءنذا ماضٍ إلى الكنيسة)) .

وعندما عاد فوجئ [ان رأى على المائدة صحفة تغصّ بالفطائر الشهيّة ، و زوجي حمام مشويّين كانت السيّدة بيبوست قد سارعت إلى شرائهما مع حُزمة من الخضار . فتمنّع ولم يشأ أن يذوق اللحم ، رغم كلّ تحريض و إلحاف .

وفي اليوم التالي ودّعتاه ، بعد أن وعدهما بالاغتذاء ممّا تقدّمه له السيّدة رينار من خبز أبيض ومآكل لذيذة . إلاّ أنه عاد فتناسى وعوده بعد غروبهما ، و ارتاح ثانية إلى أكل البطاطا المسلوقة.

وكان أن لاحظ أبناء أرس القساوة التي يخصّ بها الأب فيانّيه نفسه ،والتضحية والمحبّة النابعتين من قلبه الشفوق ، فلم يستطيعوا حجب ذواتهم عن التأثّر .

و ثمّة عاملٌ آخر ساهم في اجتذاب الأهلين إليه ، ألا وهو اهتمامه بأبنائهم ، إذ كان يجمعهم صبيحة كلّ يوم ويلقنّهم مبادئ التعليم المسيحيّ ، راوياً لهم الأقاصيص الممتعة . و إنّ صاحب

مقهى ((الوردة الفضيّة)) تأثّر في الصميم عندما سمع ابنه يعلن أمام زمرة الشاربين ولاعبي الورق : ((ما أطيب هذا الكاهن ! وعدني اليوم أن يدرّبني على خدمة القدّاس)) !

فالتفت عندئذ صاحب المقهى إلى الجُلَساء وقال : ((أظنّ أن هذا الخوري ناجح مع الأولاد ، يجنّبهم المزالق والمخاطر)) .

وهنالك زيارة البيوت أزالت الهوّة بينه وبين الرعيّة ، فكان يحدّث جماعة المزارعين عن المواشي والحقول والغلال ، ويبدي آراءه الصائبة أحياناً ، مستفيداً من اختباراته الغابرة في دنيا الزراعة . ثمّ يبارك الأطفال و يجود عليهم بصُوَر القديسين ، و يحضّهم على حضور التعليم المسيحيّ .

صحيح أن بعض الأهلين الجهّال كانوا يبادرون إلى الهرب من باب خلفيّ عند دخوله البيوت ، وصحيح كذلك أن أصحاب مقهى ((الوحش)) و ((النملة)) استقبلوه بفظاظة وخشونة ... إلاّ أن السواد الأعظم أجمع على إعلاء شأن هذا الكاهن المخلص .

وأمّا السيّد برتينان ، صاحب مقهى ((الوردة الفضيّة)) فقد استقبله هو و ابنه فرانسوا المختلف إلى التعليم المسيحيّ بحفاوة و احترام ، و كذلك صاحب مقهى ((الأيّل الذهبيّ)) الذي صرّح أمام زبائنه : ((إن الأب يطلب إغلاق المقهى أثناء قداس الأحد فقط ، وفي الساعات المتأخّرة من الليل ، وتلك قضيّة قابلة للدرس ، لا ضير فيها سوى خسارة ماليّة طفيفة)) .

بيد أن الأب خسر شيئاً من سمعته وشهرته ، زمن الفصح ، عندما أقام على حجْب المغفرة عن بعض الخطأة المتمرّسين بالرذيلة ، لا تستبين فيهم دلائل الندامة الحقّة ، ولا يرمون التخلّي

عن أسباب هفواتهم ، فيما الكثيرون انطلقوا يحدثّون بعطف الأب وحكمته وسداد نصائحه في الاعتراف .

وهكذا تراوحت القرية بين مدّاحين ولائمين ، وأمّا هو فقال لأحد زملائه الكهنة : ((أمسيت كالأموات في القبور ، لا أكترث للمديح أو الذمّ ، بل لما يوحي به الضمير والله سبحانه)) .

وكان يردّد أحياناً : ((سأقهرك ، أيّها الشيطان الخطّاف ، بنعمته تعالى)) .

* * *

في اليوم الأوّل من شهر آب اللاّهب ، كان الأب فيانّيه والصغير أنطوان سينييه ، أحد أولاد الخورص ، منهمكين في دهن واجهة الهيكل ، استعداداً لعيد شفيع كنيسة أرس ، البابا القديس سكستوس .

وإذا بكاهن ميزاريو العجوز ، الأب ديكرو ، يدخل فجأة ، فيرى الأب وتلميذه الصغير مخضّبين بالدهان من أعلى الرأس حتى الأخمصين . فلم يستطع حبس ابتسامة عريضة .

فنظر إليه الأب فيانّيه : ((أهلاً بك أيها الزميل الصديق . ها نحن نستعدّ للعيد)) .

- و لذا أتيتك أنا الآن .
- ماذا وراءك أبتِ ؟
- لا شيء غير الخير . سيتوافد كهنة الرعايا نهار الأحد المقبل للاشتراك في الاحتفال ، جرياً مع العادة المتّبعة في كلّ القرى .

- أهلاً بهم . فلسوف يضفون على بهجة العيد رونقاً وجلالاً . س
- وعليك كذلك أن تدعوهم ، آخر الاحتفال ، إلى وليمة الغذاء : فلا تنس ((المقبّلات)) واللحم المشويّ والخمر اللذيذ والمائدة الفاخرة ...
- و ماذا أيضاً ؟ إني أفتقر إلى كلّ ما ذكرت . ولكن ما لنا ولهذا الحديث ، فعليّ الآن النهوض بواجب الضيافة .

وهنا أخذ الأب فيانّيه يفتّش عبثاً في جيوبه عن دراهم لشراء قنينة خمر تبرّد من عطش ضيفة . فاستوقفه الصغير أنطوان : ((ماذا تفعل ؟ لن تجد فلساً . فقد دفعت آخر درهم في جيبك إلى أحد الفقراء ، منذ دقائق . ولكن لا تخش سوءاً . سآتيك في الحال بقنّينة)) .

قال الولد هذا ، وغاب عن الأنظار . و اتّجه الأبوان إلى الأنطش . وما إن وصلا حتى دعا الأب فيانّيه زميله إلى الجلوس على كرسيّ متداع : ((اجلس ، وكن حذِراً ، فتسلم من السقوط)) .

أمّا هو فجلس على إسكملة لا تقلّ عن الكرسيّ تحرّكاً و أنيناً .

وبعد دقائق معدودات عاد الولد حاملاً قنينة خمر مثلّجة هاتفاً : ((سألت أبي فزوّدني بها)).

وشرب الخوري ديكرو كأساً أراحت صدره اللاهث ، وحاول الأب فيانّيه من جهته إدناء الكأس من شفتيه ، فاكتفى بأن بلّهما ببضع قطرات معتذراً : ((لا قِبَلَ لي بالخمر فهو يثير دواراً في رأسي)) .

ولم يدم الحديث طويلاً ، فقد شجّع خوري ميزاريو كاهن أرس على الاعتصام بالصبر الجميل قبل جَنْي الثمار الشهيّة من نفوس رعيّته ، ثمّ عاد أدراجه إلى بلدته ، ولسان حاله يقول :

((يا لهذا القديس ! أضحى بيته مساوياً لأفقر الناس ، بفضل تجرّده وحَدْ به على الفقراء والمساكين . فكيف يكون بمقدوره استقبال كهنة الرعايا ، الأحد المقبل ؟ ..

وكان على الأب فيانّيه بعد يومين ، إثر استلامه أجره الشهريّ الزهيد ، أن يمضي إلى مدينة ليون فيبتاع تمثالَي ملاك ، يزيّن بهما مذبح الربّ في العيد . وكم كانت دهشته عظيمة عند أوبته في المساء ، حين رأى غرفة المائدة مزدانة بطاولة فخمة يحيط بها اثنا عشر كرسيّاً من الطراز الثمين ، و بكنبتين نفسيتين من المخمل الغالي . ولاحظ أن ولدين صغيرين منطرحين على الكنبتين ، يغطّان في نومهما . فأيقظهما الأب .

وما أسرع ما تبيّن أنهما أنطوان سينيبيه و فرانسوا برتينان فروَيا له في الحال كيف دارا على البيوت الصديقة في النهار ، و استجلبا هذه النفائس للعيد ، ريثما تُردّ إلى أصحابها بعد الاحتفالات .

* * *

وجاء الاحتفال نهار الأحد مهيباً رائعاً ، وعظة الأب فيانّيه بعد الإنجيل مشجّعة تشرق بالأمل الوهّاج وبالمستقبل الخيّر الفتّان في أجواء أرس الروحيّة ، والكنيسة تضيق بالمؤمنين .

وجرى بعد القداس تطواف بالقربان المقدس خللَ القرية ، فحمل خوري أرس الشعاع ، يحفّ به كهنة الرعايا ، ويتبعه الشعب غفيراً خاشعاً ، وهو يناجي معلّمه الإلهيّ بلهفة و تحرّق :
((باركهم أيّها السيّد ، واجعلهم أبناء النور ، لا أبناء الظلام))

ولمّا حان وقت الغذاء ، دهش الكهنة لما تميد به مائدة خوري أرس من أشهى المآكل والمشروبات، وهم على يقين أن ما يقدّم لهم ليس من نتاج الأنطش الفقير المعدَم ، بل هو ممّا جاد به الأصدقاء الذين أضحوا كُثُروا في أرس ، وفي طليعتهم المركيزة المعطاء .

ولكنّ هذا الانتصار الروحيّ لم يدم طويلاً ...

فقد توالت ستّة أيام ألقت الهمّ والألم في قلب الأب جان ماري : أبى العديد من سكان أرس إلاّ الاستسلام لعوائد قديمة متوارثة تُملي عليهم ، طوال هذه الأيّام الستّة ، الاحتفاء بالعيد على الطريقة الوثنيّة ، فراحوا يشربون الخمرة في ساحة الكنيسة بلا حساب ، و يقيمون الرقصات المريبة الخلاعيّة ، ويطلقون الأغنيات المسفّة السمجة ، وهم في نشوة الضائعين المستهترين .

فتوارى الأب حزيناً في الأنطش ، وجلد نفسه حتى الدم ، والدموع تنحدر من مآقيه مدراراً ، مستمطراً شآبيب الرحمة والغفران على أبنائه الزائغين ، متمتماً بحرقة : ((الشيطان الخطّاف يرقص في أرس ، و رعيّتي تتسارع إلى الهلاك وهي ترقص)) !

انتصار الملاك من سنة 1818 إلى سنة 1821

في إحدى الأمسيات الباردة ، دخل الأب فيانّيه على المختار أنطوان ماندي ، مفكّك الأوصال ، منهوك القوى ، وتساقط على الكرسيّ متنهّداً من العياء : ((خبزةً يا حضرة المختار ، فأكُمّ مزافر الجوع)) .

- ما بك ؟ وأيّ خطبٍ دهاك ؟ إن عظامك نافرة تهمّ بالإفلات من إهابك .
- إن هذا الجنس من الشياطين لا يخرج إلاّ بالصوم والصلاة .
- أفي قرية أرس شياطين ، حسب زعمك ؟

- أجل ، وهذا هو اليوم الثالث الذي أنقطع فيه عن الطعام . أما ترى كيف أن الكثيرين لا يعبأون بنهار الأحد ، فلا يحضرون القداس ولا يمتنعون عن الأعمال اليدويّة ؟ وهنالك المباهج المنحطّة الشائنة تحت شجرات الجوز ، و عبَث الراقصين ، ومشاهد السُكر في المقاهي ، والسهرات المنغمسة في الرذيلة ...
- الحقّ بجانبك ، أبت . إلاّ أن جهودك أثمرت في بيوت كثيرة أصبح للصلاة فيها مكان مرموق ، بفضل إرشاداتك . كما أنّ الكثيرين أيضاً أقلعوا عن المسكرات واللعب بالقمار. وماذا أقول عن الأولاد الذين يحيطون بك كلّ يوم إحاطة السِوار بالمِعصم ، فتزيّن نفوسهم بالتعاليم السماويّة ؟
- أودّ لو تكون الرعيّة بأسرها عائشة في حمى المسيح .
- لن تصل إلى مأربك بين ليلة وضحاها . فاعتصم إذن بالصبر ترَ في القريب العاجل تحقيق أحلامك .
- أما من أخويّة تستطيع جمع شمل الرجال وتوجيههم في المنهج القويم ؟
- ثمّة أخويّة القربان المقدّس ، تأسّست سنة 1727 . غير أن عِقدها انفرط أثناء الثورة، ولا يبقى من أعضائها سوى القليل . نستطيع ، إن أردت ، إعادة تأليفها و إنمائها .
- فكرة ولا أحلى . سنحاول إنعاش هذه الأخويّة ، عسانا أن نؤثّر في قلوب الأهلين أجمعين بواسطة الرجال . فهم عماد القرية ، وبهم ترجح كفّة الميزان .
- في هذه الأثناء دخلت المختارة حاملة طبق الطعام ، فأكل الأب و استعاد قواه المنهارة .

* * *

وكان لأبناء الأخويّة في أحياء القرية وقع حميد ، إذ راحوا ينتشرون انتشار النور في كل بيت ، فيصطادون الأعضاء الجُدُد ، ويقضون ردحاً من الزمان كلّ يوم ساجدين أمام القربان المقدس مستمدّين المؤازرة والفلاح ، ويحافظون على النظام أثناء الحفلات الدينيّة ، و يحثّون المؤمنين على دخول الكنيسة في كلّ مناسبة .

وشاء راعيهم الأب جان ماري الاضطلاع بتطواف في القرية إعلاء للقربان المقدّس ، فانبرت النساء يتبارين في تزيين الأزقّة و الممرّات بالأوراق الملّونة الميّاسة ، وفي رفع المذابح هنا وهناك مدبّجة بالنسيج الحريريّ المتعدّد الألوان والأزهار الفوّاحة والرياحين ، وانطلق هو صحبة المركيزة إلى ليون ، فاشترى شعاعاً فضيّاً ثميناً و حُقّاً للقربان من الذهب الوهّاج يدخل في قلب الشعاع ، وألبسة متلألئة لأولاد الخورس ، فدفعت المركيزة الثمن باهظاً بطيبة خاطر ، وفي عزمها أن تساهم هي أيضاً بطريقتها في ذلك الاحتفال المنقطع النظير .

وكان التطواف في الموعد المضروب آية في التقوى والبهاء والتنظيم ... فالشعب بأجمعه ، ما عدا بعض الرجال المتشبّثين بأهداب الرذيلة ، سار وراء القربان المقدّس خاشعاً مصليّاً ، وأبناء الخورص بثيابهم المزركشة يطلقون الترانيم الرخيمة ، و أعضاء أخويّة القربان الطاهر مبثوثون في كل ناحية يشيعون الهدوء والنظام والابتهال ...

* * *

مرض الأب جان ماري أثناء الشتاء ، فكانت الحمّى تصهره طوال أيّام وليال ، والسيّدة رينار مع نساء أُخر أشفقن عليه ، يقدّمن له الخدمات ليل نهار ... وما إن تعافى حتى أُصيب بداء ((العصبي)) ينهش مفاصله ويجمّد أعضاءه ، ملاحقاً جسمه الغضّ باللذعات الموجعات . فحمل أوصابه صابراً مبتسماً ، واكتفى بنقل مرقده من القبو الرطب إلى زاوية أخرى في الهُري أصحّ وأجدى ، دون أن يضرب الوهن من تضحياته و خدماته .

و تسامى إلى المطرانيّة خبر مرضه ، فقرّرت نقله إلى قرية أخرى تتمتّع بمناخ يوائم صحتّه المتردّية ، هي قرية سالّ القابعة على سفح جبل من مقاطعة بوجوليه . فأذعن للأوامر دون اعتراض ، وجمع أمتعته الحقيرة الطفيفة بطرفة عين ، وهمّ بالرحيل صباحاً بعد القداس دون إعلام أحد .

إلاّ أن الولدين أنطوان سينييه و فرانسوا برتينان ، خادمَي القداس ، لاحظا التدبير السريع ، فثارا وهدّدا بفكّ الحصانين من عربة النقل التي أرسلتها المطرانيّة لهذا الرحيل .

فأجابهما الخوري : ((علينا الانقياد ، أنا و أنتما ، لأوامر السلطة ، فلا تعيقا تنفيذها ، ولسوف يخلفني كاهن أجدر و أفضل)) . ولكنهما أصمّا الأذنين وانطلقا يعدوان إلى القرية لإعلام الأهلين . س

وما كاد السكّان يتنبهون و يتجمعّون للاحتجاج و إيقاف عمليّة النزوح ، وهم يعدّون بالعشرات، حتى كان الأب المتواضع المسالم قد غاب عن الأنظار في العربة .

فهالَ أبناء الرعيّة اختفاء الراعي القديس المحبّ المفضال ، وقرّر المختار ماندي المضيّ في الحال إلى مدينة ليون ، مصطحباً مستشار البلديّة ميشال سينييه ، والمركيزة آنّ دي غاريه ، للمطالبة بإعادة خوريهم المفدّى .

وعند المساء فوجئ الصديقان الصغيران ، فرانسوا و أنطوان وهما ينقلان الخطى وحيدين حزينين في الشارع الرئيسيّ ، بمشاهدة عربة النقل التي انطلقت صباحاً إلى سالّ ، عائدة إلى القرية ، والأب فيانّيه جالس إلى جانب الحوذيّ ، فكادا يجنّان من الفرح ... وما هي إلاّ دقائق حتى قرع جرس الكنيسة ، فالتفّت القرية كلّها حول راعيها ، والقلوب خافقة ، والعيون مخضلّة بالدموع .

فعلموا عندئذ أنّ ما أرجع الكاهن إليهم هو انقطاع الطريق بتدفّق نهر الصون وفيضانه ، فشكروا الله ذوبان الثلوج المداهم ، وأخذو على أنفسهم ألاّ يفلت كاهنهم من إسارهم مرّة أخرى .

أمّا هو فكان يردّد : ((الطاعة قبل كل شيء ، إقبلوني بعد في دياركم ثلاثة أيّام ، ريثما يتقلّص مجرى النهر و تنفتح الطريق)) .

و أقبلت عربة أخرى من ليون تقلّ المختار والمستشار والمركيزة حاملة إلى النفوس المضطربة نبأ بقاء الكاهن فيانّيه ((خوريَ أرس)) . فتعالت الأصوات تحيّي الأب الذي برزت أفضاله في تلك اللحظة بروز الجوهرة من مخبإها ، و تفدّيه بالأرواح .

و أضاف المختار : ((يوصيك النائب العامّ ، أبت ، بمراعاة صحتك في الإماتة والتقشّف)) .

- هذا ما أعيره انتباهي في المستقبل .

و جمع الأب أبناءه كما تجمع الدجاجة فرخها تحت جناحيها ، فدخلوا الكنيسة ، و وجّه إليهم كلمة ملؤها التشجيع و العطف والمثابرة على الجهاد ضدّ الشيطان و أحابيله ، وختم اللقاء بصلاة المساء .

وكان انتصار لملاك الربّ على الشيطان و أعوانه في ذلك النهار السعيد ، في ربوع أرس ! .. إلاّ أن الشيطان عزم على عرقلة المساعي الحميدة أكثر من أيّ وقت مضى .

* * *

سنة 1822 :

زار يوماً الأب فيانّيه قصر المركيزة ، فاسترعت انتباهه لوحة معلّقة على الجدار تبرز رسم سيّدة من عليّة القوم مكشوفة الصدر ، فاستخبر عنها ، فقالت المركيزة : هي السيّدة أميلي دي غاريه ، من جدّاتي النبيلات ، عاشت زمن الملك لويس الرابع عشر ، وكانت من حاشية الملكة.

- ولكن لا يليق بالمركيزة النبيلة عرض لوات تثير الغريزة الحيوانيّة و الانفعالات الحسيسة .
- ماذا تقول ؟
- أقول الحقّ . كنت أوّد لو تعلّقين بدل هذه اللوحة صورة المصلوب أو العذراء أو أحد القديسين . واعلمي جيّداً أنك ، بفضل رتبتك السامية ، تستلفتين الأنظار . فيجدر بك إذن أن تكوني منارة هداية وفضيلة وأخلاق .

و أضاف الأب دون مواربة ولفّ و دوران : ((علمت أن قصركِ سيقيم حفلة راقصة عشيّة نهار الأحد المقبل . أوثر ألاّ تجري هذه الحفلة ، لما ينجم عن مثلها عادة من إسراف في المبادرات والحركات والمشاعر .

- ولكن ، أبت ، ستكون الألبسة لائقة تبثّ الحشمة و الرصانة .
- ما هَمّ ، أنا على يقين أن هذا الرقص مريب لا يعزّز الفضيلة بل الرذيلة .
- سوف أرى كيف أعالج هذه القضيّة .

و استأذن الأب ومضى . وظلّت المركيزة واقفة عند العتبة طويلاً تشيّعه بناظريها ، متأمّلة في أقواله .

و أقبل الأحد ، فاعتلى الأب جان ماري المنبر كالمعتاد ، وتكلّم بصراحة عن الأسباب التي تربط الإنسان بالخطيئة : ((لا غَناء لنا ، إذا أردنا الخلاص ، عن قطع هذه الأسباب بجرأة و حزم ، مهما كلّفنا هذا الإقدام من تضحيات ومصاعب فتطير النفس إلى العلاء كالنسر ، حرّة من كلّ عائق .

((ومن بين هذه الأسباب حفلات الرقص المتطرّفة التي أضحت في أيّامنا مَثار غريزة و رذيلة ، ومسرحاً للشيطان ، سواء أحيَيناها في ساحة الكنيسة أم تحت شجرات الجوز أم في القصر)) !

فاتّجهت أنظار الحاضرين أجمعين عندئذ إلى ((بنك الشرف)) المعدّ للمركيزة و موكبها الكريم القادم من باريس ، وعلى رأسه أخو المركيزة الكونت فرانسوا دي غاريه ، فلاحظت وجه المركيزة يحمرّ خجلاً و تأثّراً ... أمّا الكونت فقد اكتفى بابتسامة بسيطة .

و عند انتهاء القداس علقّ الناس على العظة بقولهم : ((لقد أحسن في ما قال . فهو كالقديسين لا يعرف المداهنة والمراعاة ، بل يشمل الجميع على السّواء ، فقراء و أغنياء ، بالإرشاد الحقّ ، والتونيب الصحيح ، والترغيب المشجّع)) .

وحدث أن دعا الكونت خوريَ أرس إلى زيارته بعد القداس ، وشكر له صراحته الشافية و إنْ مؤلمة ، و وعده بإبطال حفلة الرقص المسائيّة مهما كلّف الأمر . فابتسم الكاهن ، ثمّ التفت إلى الجدار : ((أين اختفت اللوحة التي كانت مصدر جدال بيني و بين المركيزة منذ يومين)) ؟

فتدحرجت ابتسامة رفّاقة على شفتي المركيزة و أجابت : ((أُصيبت السيّدة المرسومة على اللوحة بزُكام و سعال ممضّين مزعجين ، فأُلجئنا إلى مواراتها في القبو)) .

فأطلق الجميع عند ذاك ضحكة مدوّية .

و أضاف الكونت : ((سأزفّ ، أبتِ ، إلى الكنيسة جرساً كبيراً ، مكافأة لك على إحسانك إليّ في العظة هذا الصباح)) .

وسجلّ ملاك الربّ في ذلك النهار انتصاراً جديداً على الشيطان .

من سنة 1823 إلى سنة 1824 :

في يوم من أيّام كانون الأوّل العاصفة سنة 1823 ، كان الأب فيانّيه جاثياً أمام مذبح جانبيّ بناه حديثاً على اسم القديس يوحنّا المعمدان ، وقد وضع حول هامة القديس هذه الكتابة : ((سقط رأسه ضحيّة رقصة)) .

وكان على الأب بعد هنيهة أن يمضي إلى بلدة ((مون ميرل)) المجاورة للمساهمة في إحياء الرياضة الروحيّة السنويّة التي تقام هنالك ، فراح يصلّي أمام المذبح : ((تستطيع الابتسام أيها القديس في مجدك السماويّ ، ويمكنك الابتهاج بهذا المعبد الصغير الذي بنيته لك . ولكنّك تبدو وكأنك تتجاهل أني لم أدفع بعد إلاّ أجر البنّاء والدهّان وحسب . وهكذا فأنا مرغم على الهرب من أمام وجه النجّار كما لو كنت سارقاً يتجنّب حضور الناطور .

((قلتَ أنت نفسك أن الجبال والتلال ستُخفض و تُسوّى الأرض منبسطة مكانها ، و إنّ الوهاد ستمتلئ . فبإمكانك من ثمّ أن تساعدني على إزالة جبل الهموم الملقى على كاهليّ ، وعلى سدّ ثُغرة ديوني المستحقّة .

((أما تخجل من تربّعك فوق مذبح لا يزال تحت الدين ؟ فبادرْ إلى مساعدتي أيها القديس ، وإني لمعترف بفضلك مدى الحياة)) .

ثمّ نهض واتّخذ طريق مون ميرل عاهداً إلى كاهن آخر أن يهتّم بالرعيّة أثناء غيابه ، والهواء البارد يلطم هيكله الدقيق فترتعد عظامه الهشّة من لسعات البرد الموجعات ، وما عليه سوى ثوب أسود بالٍ ، دون معطف ولا فِراء .

وطفق يحدّث نفسه : ((تحسّنت الأحوال في رعيّتي ، ولا شكّ : فأصحاب المقاهي يتذمّرون من قلّة الزبائن ، والأعمال تنقطع تقريباً في كل مكان نهار الأحد ، وعدد من الرجال لا يستهان به ينتمي كل يوم إلى أخويّة القربان المقدس ، والنساء والفتيات يدخلن أفواجاً في أخويّة الورديّة الجديدة ، والمؤمنون يحضرون القداس بأعداد أوفر ، ولا يمتنعون عن صلاة الغروب والنوم .

((إلاّ أن الرقص ، الرقص الخلاعيّ ، لا يزال ملهاهم المفضّل ! فما العمل)) ؟

و تراءت له قسمات النجّار الثائر المتهكّم ، المطالب بأجره الذي يناهز خمس مئة فرنك . فتمتم: ((من أين لي بها ؟ آمل ألاّ يرقص هذا النجّار رقصة الشيطان ، فيبتعد عن الله بسببي. لقد استلمت من أخي فرانسوا ثلاث مئة فرنك ، دخلي السنويّ من إرث أبي ، فغارت هذه القيمة مشفوعة بأجري الشهريّ لسدّ نفقات البنّاء والدهّان)) ...

و إذا بالثلج يتساقط بغزارة ، فتغيب معالم الأرض ، ولا يعود الأب يرى أمامه سوى بساط أبيض ، فلا طريق ولا أدلّة تشير إلى الهدف .

وطرق آذانه رنين أجراس ، فمشى في اتّجاهها على غير هدى ، وهو يهتّز مترنّحاً من وخز الجليد والثلوج ، و يتعثّر عند كل خطوة ، حتى سقط من العياء و جمود الدم في عروقه ، و أُغمي عليه ، والريح تذري الثلج و تنسجه فوقه شمالاً ويميناً ...

ولم يشعر بعد ساعات إلاّ وهو ممدّد على الفراش ، وإلى جانبه خوري مون ميرل يحنو عليه و يتعهّده بعنايته . فسأل ((أين أنا)) ؟

- أنا في الأنطش إذن ؟
- لا ، بل ضيف عند الآنسة مونديزير ، تقدّم لك ما تحتاج إليه . لا تجهد نفسك ، و ابق ملازماً الفراش بضعة أيّام إلى أن تتعافى تماماً .

وفي اليوم التالي دهش خوري مون ميرل لمّا شاهد الأب فيانّيه منتصباً أمامه في السكريستيّا ، يخضّب وجنتيه الاصفرار ، وهو يجتهد في الابتسام ويقول : ((ما هو العمل الذي تكله إليّ في الرياضة)) ؟

وبعد ذلك رقيَ درجات المذبح واحتفل بالقداس ، وتكلم بعد الإنجيل ، فتساقطت الكلمات من شفتيه وئيدة حارّة نابعة من الصميم ، و الشعب متراصٌّ مرهف الآذان ، يستمع بشغف و تأثّر. وكثير من السامعين سحبوا مناديلهم يكفكفون الدموع من مآقيهم ، وهم يردّدون في داخلهم : ((إنه لقديس ! تجشّم لمخاطر و الآلام الفادحة من أجلنا ، وها هو الآن يهزأ بالأرزاء الجسام ، ويعظنا من أعماق أعماقه)) .

وبعد القداس التفت أحد الكهنة إلى زميل له : ((ما قاله الأب فيانّيه في العظة ممعنٌ في البساطة ، لو قلناه نحن لما عبئ بنا أحد . فما هو سرّ ذلك السحر الذي به يخلب سامعيه و يفعمهم تأثّراً و ندامة)) ؟

فأجابه ذاك ، وهو يهزّ رأسه : ((هي القداسة المتجلّية في سماء نفسه)) !

* * *

و بسطت الآنسة مونديزير أشهى ألوان المآكل لضيفها على المائدة ، فاعتذر : ((أكتفي منك بقليل من البطاطا المسلوقة في قصعة)) . فقالت الآنسة في سرّها : ((لعلّه يتناول الطعام الدسم عن الخوري في الأنطش)) .

و أزف ألوان الاعترافات بعد عشرة أيّام من الرياضة ، فأبى المؤمنون أجمعين إلاّ الاعتراف للأب فيانّيه ، فازدحموا أمام كرسيّه في الكنيسة حتى ساعة متأخّرة من الليل ، وهو يضمّد الجراح الدفينة و يعزّي و يشجّع ، حتى أثار شيئاً من حسد بعض الكهنة .

أمّا خوري البلدة فسرّ أيّما سرور وقال للأب في صبيحة الوداع : ((فقيرٌ أنا ، لا تتيسّر لي مكافأتك . فخذ هذا البنطلون المخمليّ الأسود ، فهو خير وقاية لك من البرد والجليد)) .

فخلع الأب بنطلونه البالي ، ولبس الجديد ، وقفل عائداً . عندئذ تقدّم خوري مون ميرل من الآنسة مونديزير : ((أشكر لك أيتها الآنسة ما جُدت به من عناية على خوري أرس)) .

- لم يكلفّني شيئاً سوى قليل من البطاطا المسلوقة .
- ماذا تقولين ؟
- ألم يتناول الطعام في الأنطش ؟
- لا . ظنّي به أنه كان يغتذي من مائدتك !

و هرعا كلاهما إلى قصعة البطاطا فألفياها فارغة ، فقالت الآنسة مستلقية على الكنبة ، فريسة للأسى والأسف الشديد : ((إذن ، كان طعامه طوال الأيّام العشرة المنصرمة قليلاً من البطاطا المسلوقة الباردة)) ؟ !

* * *

وفيما الأب على طريق العودة صادف مشرّداً أثقله الدهر بمصائبه ، وهو يرتجف تحت أسماله، فأشفق عليه إشفاقه على ذاك الذي التقاه على طريق مدينة ليون ، فتجدّدت المسرحيّة ثانية خلف عوسجة ، حيث وهب الأب الفقيرَ بنطلونه المخمليّ الدافئ القشيب ، وعاد فلبس بنطلونه القديم المرقّع المودَع حقيبتَه الصغيرة .

وأكمل الطريق فرحاً ... وما هي إلاّ دقائق حتى انتصبت أمامه كنيسة أرس و بيتوها المعهودة ، فافترّ ثغره افترار الراعي الأمين الملتحق بقطيعه بعد حقبة طويلة .

و وقعت عيناه قُبيَل الأنطش على عربة فخمة قادمة من المدينة ، فترجّلت منها سيّدة عليها سيماء النبل والثراء ، و تقدّمت من الكاهن مستفهمة : ((هل أنت الأب فيانّيه ، خوري أرس)) ؟

- لم تخطئي الظنّ .
- إليك إذن هذا المبلغ الزهيد من أجل مشاريعك .

و لمّا خلا الأب بنفسه فتح الظرف ، فوجد فيه أوراقاً مصرفيّة بقيمة ستّ مئة فرنك . فاتّجه توّاً شطر النجّار غريمه ، ودفع له الدين ، وشكر للقديس يوحنّا المعمدان تدخلّه المحبّب .

* * *

وشعر الأب بحاجة شديدة إلى مدرسة للبنات ، غير مكتفٍ بتلك المدرسة الصغيرة التي كانت تفتح أبوابها أثناء الشتاء ، فيدبرها أحد الأساتذة الغرباء ، ويلقّن فيها الفتيان والفتيات والأطفال معاً مبادئ القراءة والكتابة والحساب .

ولكن من أين له الدراهم لمثل هذه المدرسة ؟ فلم يقنط ولم يتوانَ ، بل اتكل على اللّه ، وطفق يدور من بيت إلى بيت يجمع الأموال في أرس و ضواحيها ، وفي مدينة ليون . وجاءه الرفْد كذلك من أخيه فرانسوا الذي أمّ قرية أرس كعادته في كلّ سنة ، وألقى هذه المرّة بين يدي أخيه الخوري تسع مئة فرنك دفعة واحدة قائلاً : ((هذا المبلغ الدسم عن ثلاث سنوات . تدفّقت الغلال هذه السنة بوفرة ، فكُن مقتصداً ولا تبذّر المال يَمنة و يَسْرة)) .

- شكراً . سأعمل بنصيحتك .

و استدعى الأب في ربيع سنة 1824 فتاتين من تلميذاته القديمات في التعليم المسيحيّ ، هما كاترين لاسّانْيو و بنْوات لارديه ، و أعلمهما بأنهما ستكونان معلّمتين في مدرسته العتيدة فقبلتا بارتياح . وسرعان ما أرسلهما إلى بلدة فارينس للتخّرج قدر المستطاع من مدرسة راهبات القديس يوسف ، على نفقته .

ثمّ مضى فاشترى بيتاً رحيباً بمحاذاة الكنيسة من المزارع الشيخ لاكوت . و جهّزه بالمقاعد والأسرّة وآنية المطبخ ، حتى إذا عادت كاترين و بنْوات من مدرسة الراهبات ، دشّن افتتاح المدرسة . فتسابق الأهلون في أرس والقرى المجاورة إلى إرسال بناتهم ، ولا سيّما وإنّ الأب استقدم معلّمة ثالثة من خارج أرس لتدريب الفتيات على الخياطة و التطريز والاعتناء بالأعمال المنزليّة .

وهكذا اضطّر الأب جان ماري إلى فتح فرع داخليّ للفتيات اللواتي يأتين من قرى نائية ، فضمّت مدرسته منهنّ ستّ عشرة فتاة . وأطلق على المدرسة اسم ((مدرسة العناية الإلهيّة)) .

وشاء أن تكون المدرسة مجانيّة ، فلم يتساءل يوماً كيف ينهض بتكاليف المعلّمات و التلميذات الداخليّات ، متّكلاً على عناية الله الرحيمة . فلم تخذله أبداً .

تساءلت القيّمات على المدرسة مراراً بتحرّق ما يقدّمن في الغد من طعام للتلميذات ، والمطبخ و مستودع المؤونة خاويان ، فلا كسْرة ولا حبّة ولا عرق من الخضار ... ولكن ، ما إن يطلّ اليوم الثاني حتى يحصلن على مبتغاهنّ من محسن قادته العناية الإلهّية ، فتتبخّر الهموم والمخاوف في الحال ، وتشرق شمس الغبطة ضحوكاً تنضح بالأمل ...

* * *

وكان حنق الشيطان عظيماً عند رؤيته المكرُمات ومجاري البرّ والصلاح تتدفّق من مدرسة العناية، فعزم على الانتقام و العرقلة والتشفّي : ففي إحدى الليالي استيقظت السيّدة رينار وابنتها ، وهما في بيتهما الملاصق للأنطش ، وكذلك الحدّاد بيكار و ابنه الشابّ ، على ضجيج غريب منبعث من بيت الخوري ، كما لو كان مجرمون من أبناء الظلام يحطّمون الأثاث و زجاج النوافذ بقرقعة عظيمة . فهبّوا يتساءلون : ((هل جُنّ جنون الكاهن ، أم هي مداهمة ليليّة)) ؟

ولم يطل التساؤل ، فقد تسلّح الحدّاد وابنه بمطرقة وهرعا إلى المعترك يقرعان الباب . وكانا على وشك خلعه عندما حلّ السكون فجأة ، ففتح الباب ، وأطلّ الأب جان ماري حاملاً فانوسه ، و وجهه يميل إلى الشحوب أكثر من المألوف ، وقال بهدوء : ((لا تخافا . هو الخطّاف)) .

- الخطّاف ؟
- أجل ، الشيطان يؤرّقني بصخبه منذ أيّام ، وهو ساخط أشدّ السخط من مبرّات ((العناية)) . إلاّ أن الضجّة تجاوزت الحدود هذه المرّة . لا تَقْلقا ، فهو لا يستطيع الإساءة إليّ ، إلاّ بحرماني النوم الهنيء أحياناً)) .

و سرى الخبر في القرية أن قوى الجحيم تثور على الأب فيانّيه ، المصلح الإجتماعيّ ، فتنكسر شوكتها أمام القداسة والفضيلة . وذهب البعض إلى أنّ هذه الضجّة هي وليدة زُمرة من المشعوذين، يضمرون الشرّ للكاهن ، و ينصبون له الأشراك والأحابيل . فتطوّع عندئذ شابّ من أبطال القرية ، يدعى أندريه فرشير ، فاصطحب بندقيّته ، و كمَنَ ليلاً في الغرفة المحاذية لمهجع الأب فيانّيه الذي كان منذ أيّام قد انتقل من منامه في الهُري إلى الطابق الأعلى .

و دقّت ساعة الكنيسة الواحدة بعد نصف الليل . فاستفاق أندريه فجأة على قعقعة و زمجرة و خشخشة ارتفعت مختلطة ، وكأنّ اثنتي عشرة عربة حديديّة تجري على أرض مبلّطة . وخُيّل إليه في الوقت نفسه سماع طرقات عصيّ على الباب الخارجيّ ، فوثب إلى النافذة وأطلّ على الخارج ، فلم يقع على شيء مريب . فشعر عندئذ بتخاذل في ركبتيه ، و برعدة في يديه ... وبعد قليل دخل الخوري عليه ، و سأله : ((هل سمعت شيئاً يا أندريه)) ؟

- لو كنت أطرش لسمعت .
- أخائف أنت ؟
- أنا ، لا ... لا . لست بخائف ، غير أنّ ركبتيّ تأبيان حملي . إن الأنطش سينهار .

وكان البناء آنذاك لا يزال يترجرج ويموج كما في هزّة أرضيّة . فأجاب الخوري باسماً : ((هو الخطّاف ، لا شكّ فيه)) .

وتلاشى الهياج فجأة ، و استتبّ الهدوء ، فقال الخوري : ((إلى النوم الآن . لن يعنّينا الشيطان من بعد ، هذه الليلة)) .

وسمعت خطوات الأب تتّجه بانتظام إلى الكنيسة ، فلمّ أندريه ما تفرّق من متاعه ، و ذهب فاستتر في بيته .

ولكن ، ترى ، هل سيكتفي الشيطان بالصخب والضجيج ، في غرفة الخوري ؟

* * *

من سنة 1826 إلى سنة 1827 :

في مساء نهار الأحد من منتصف شهر كانون الأوّل ، هرعت السيّدة رينار إلى الكنيسة ، فوجدت الأب فيانّيه حبيس بيت الاعتراف ، والمؤمنون منتظمون في صفّ مديد ينتظرون دورهم للإقرار بخطاياهم . فأستأذنت وقالت للكاهن في اضطراب و وجل : ((الأرملة ماتين على شَفا الموت ، وهي توّد رؤيتك)) .

- هاءنذا آتٍ .

و ترك الأب المؤمنين في انتظارهم ، وسارع إلى بيت الأرملة ، و إذا هي صفراء كالشمع ، تحشرج في تنفّسها حشرجة المنازعين . فقال لها : ((ما بغيتك ؟ لقد زوّدتك عند الصباح بمسحة المرضى)) .

- أجل ! ولكن أرغب في رؤية ابنتي كريستين قبل مماتي .
- أين هي ؟
- في بلدة سافينيو تزاول الرقص بمقهى ((الحصان الأسود)) .

أنا المجرمة ! لم أُنشئ ابنتي على هدي الإنجيل و أضوائه ، وكنت متساهلة في تربيتها ، فزاغت عن الطريق المستقيم .

- لا تقلقي أيتها السيّدة ، فها أنا ماض لآتي بها إليك .

و انطلق الأب بخطى متسارعة ...

و غشِيَ المقهى ، فزعق الراقصون والراقصات زعقة استنكار وخوف ، و تبدّدوا يميناً و شمالاً ، ما عدا بعض الشبّان المستهترين الذين آثروا التحدّي والمجابهة بقِحَة و غِلْظة . فتقدّم الأب غير عابئ ونادى الآنسة كريستين فمثلت ، فقال لها : ((هيّا معي إلى جانب أُمّك المحتضرة)) .

و ذهبا معاً .

فعلّق بعض الحاضرين بابتسامة خبيثة : ((أهذا هو قديسكم يا فتيان أرس و فتياتها ؟ ها هوذا يصطحب خليلته)) ! ..

وعندما وصل الأب و الآنسة أمام السيّدة الطريح ، تحقّقا أنها جثّة هامدة . فانفجرت كريستين بالبكاء والعويل . وقال لها الأب : ((الموت ليس مخيفاً أيتها الآنسة . هو ملاك الرب هبط من السماء و انطلق بأُمك إلى حياة أفضل . كسرتِ قلبها بتصرفّاتك ، فلا تجنحي من بعد ، حتى تصيري يوماً إلى حيث هي)) .

وقفل الأب إلى الكنيسة فوجد الناس لا يزالون بانتظاره للاعتراف ، فدخل سجنه الصغير المحبوب ، يطوي الساعات بصبر عجيب ولهفة و تضحية .

ولاحظ الأب بعد أيّام أن الآنسة كريستين أضحت تخاف حضوره ، وقد امتقع لونها ، و اضطرب مسلكها . فاستفهم من خَطْبها فأجابت السيّدة رينار : ((إنها حبلى ! لم أعد أطيق محادثتها إذ هي خاطئة)) .

- مخطئة أنت أيتها السيّدة . علينا أن نحيطها بالمودّة و التفهّم فنُقيل عثرتها .
- ماذا ؟ تبدو قاسياً تجاه خطايانا الطفيفة ، وتذوب رقّة أمام الجنوح الكبير ؟
- أحبّ الخطأة أيتها السيّدة ، لأنني أكره الخطيئة .

- أجل ، أجل ... أنت كالمسيح معلّمك ((محبّ للعشّارين و الخطأة)) ! ..

* * *

وفي ليلة مظلمة من أيلول ولدت كريستين ماتين ابناً . وكان الأب يتردّد إليها صحبة السيّدة رينار ، ويقدّم لها الدعم الروحيّ والماديّ . فانتشر الخبر في كل أنحاء أرس وفي الحوار ، واسترسل الناس ، ولا سيّما الطائشين المنحرفين منهم ، يتفكّهون بأخبار كريستين ، و يزجّون الأب فيانّيه ، الملاك الطاهر السويّ ، في مشكلتها الشائكة ، ممرّغين كهنوته الصافي بالحمأة والعار والذلّ ، وهو واجم صابر ، تارك الله تعالى أمر الدفاع عنه إن أراد .

وكان يردّد مناجياً معّلمه الإلهيّ : ((هذه الكأس التي احتسيتَها راضياً حتى الثُمالة ، أما أشربها أنا ؟ إنه لإنعام عليّ أن توشّحني يا سيّدي ، بوشاحك المخضّب بالدم والبصاق والمهانة)) ...

وكان الأشقياء المغرضون يبعثون بالرسائل المجرّمة المجرّحة إلى الأنطش ، و يلصقون على أبوابه و نوافذه اللاّفتات المشينة الوخِمة ، و يتجمهرون تحت نافذة كريستين مطلقين الأغاني البذيئة ...

فتعقّبهم الأب مرّة ، بدافع من محبّته ، و أعاد على مسامعهم قول السيّد المسيح : ((من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر)) ! فانفرط شملهم شاتمين هازئين ، بعد أن حصبوا نوافذ بيت المسكينة و نوافذ الأنطش بالحجارة فحطّموها تحطيماً .

ولم تستطع كريستين احتمال وطأة التعيير و الإذلال ، فانطلقت بعد ثلاثة أيّام من العذاب المرير، ملتحفة ظلام الليل ، وألقت بنفسها في نهر الصون . فقال الأب فيانّيه : ((مسكينة هي ، ليست مسؤولة عمّا جنَت . لقد هدّها المصاب ، فأطاح بعقلها وحياتها معاً)) .

وصلّى على جثّتها ، ثمّ دفنها في المقبرة المقدّسة. وبعد ذلك حمل طفلها على ذراعيه و استودعه ((بيت العناية)) . فثار الملحدون عندئذ ، و استجرّ لهم كثير من المؤمنين الذين لم يكنّوا للأب في ما سبق غير الودّ والإخلاص والأمانة ، وطفقوا جميعهم يتهجّمون ، لا في الأرض المقدّسة ، ولما أحاط ابنها ، ثمرة خطيئته ، بالعناية والاهتمام)) .

أمّا هو فكان يقول : ((هذا الطفل هو ابن الله بالمعموديّة)) .

* * *

و ساءت سمعة مدرسة العناية في كل الأصقاع ، فسحب الكثيرون بناتهم منها حفاظاً على الشرف ، كما أنهم حجبوا عنها المدَد والمعونة .

و تناهى صدى هذه الأخبار و الأقاويل إلى سيادة المطران ديفي ، أسقف أبرشيّة بيلّي التي انتمت قرية أرس إليها حديثاً ، فأرسل إلى الأب فيانّيه عميدَ الكهنة في مدينة تريفو ، فقال له العميد : ((سيادة المطران على يقين من براءتك ، ولكن إن لم تتمكّن من إثباتها فما لك إلاّ الانتقال إلى فارينس .

و يحسن بنا قبل رحيلك أن ندعو الناس إلى رياضة روحيّة)) .

فقدم من مدينة ليون ثُلّة من الكهنة للنهوض بالرياضة ، فلم يلبّ دعاء الجرس إلاّ النزر القليل من الأهلين ، وظلٌّ قاتم ثقيل يخيّم على القرية ، إلى أن شاءت العناية الإلهيّة انتشال كاهنها من غمرة الشدّة ، فسطع الحقّ و زهق الباطل : ففي اليوم الثالث من الرياضة أُصيب أحد خدّام المزارع فلوري تريف بلبطة حصان جموح ، فتورّم الجرح و فسد ، حتى أشرف الخادم على الموت .

فارتعب و استقدم أحد كهنة الرياضة . وبعد أن سمع الكاهن اعترافه حرّضه على البوح بجريمته أمام شهود ثقة ، و إلاّ فلا ينال الحلّ عن خطاياه لما ينجم عن امتناع البوح من أضرار جسيمة .

و انتشر الخبر بسرعة اجتياح العاصفة في كلّ الأرجاء ... وبدون أن يقرع الجرس ازدحمت الكنيسة بالشعب أجمع . وكان صمت يحاكي سكون المقابر مخيّماً ، فاعتلى أحد الكهنة المنبر، وتلا إقرار الخادم المتوفّى ، وقد وقّعه الكاهن المذكور والمختار والشاهدان الآخران .

و أضاف الكاهن بصوت جهير : ((أيّها الناس ، لقد كنتم لخوريكم ظالمين . فاسألوه الصفح ، و أنا أعلم أنه يغفر لكم)) .

في هذه الأثناء كان كاهن آخر قد خفّ إلى الأنطش لإعلام الأب فيانّيه بعودة المياه إلى مجاريها، حاثّاً إيّاه على المضيّ إلى الكنيسة : ((هلمّ ، فالرعيّة في انتظارك)) .

- لم تعد رعيّتي . فقد استلمت منذ دقائق نبأ تعييني خوري فارينس من قِبَل سيادة المطران .

إلاّ أن الإلحاح عليه بالانطلاق إلى الكنيسة جاء شديداً ، فشوهد بعد لحظة فوق منبر الكنيسة ، وهو في اصفرار الميت ، ففاه بهذه الكلمات : ((تعتقدون يا إخوتي أن عليكم طلب الصفح . لا حاجة لكم إلى ذلك ، فأنا أعلم أني غير مستحقّ أن اكون خادمكم .

((كلّ ما أسألكم إيّاه هو ألاّ تلاحقوا من بعد ابن تلك المسكينة ، برنار ماتين ، بأحقادكم السامّة ، لأنه بريء . فكيف لا نحبّ تلك الخليقة الصغيرة التي أحبّها الله ؟ سأترككم قريباً لأن سيادة المطران وكلَ إليّ رعيّة أخرى . صلّوا من أجلي ، و أنا أعدكم أن أحملكم دائماً في قلبي)) .

أنصت المجتمعون ، والدموع تجول في أعينهم . وعندما طرقت آذانهم كلمات الوداع ، أجمعوا في داخلهم على استبقاء خوريهم مهما كلّف الأمر .

وهكذا عادت الأوامر فانطلقت من المطرانيّة مرّة أخرى ، تتيح له البقاء في أرس ، بفضل مساعي أهل القرية الحميدة الناشطة .

و تُوجّت الرياضة الروحيّة بالنجاح الباهر : فاعترفت الرعيّة كلّها تقريباً ، و اهتدت إلى طريق الحقّ ، وكثير من الرجال الذين تكلّموا بالسوء على كاهنهم هاذرين ،انقطعوا عن ارتياد المقاهي، وقد كانوا لها في ما قبل مخادنين . فلجأت عندئذ كلّها إلى إغلاق أبوابها ، الواحدة تلو الأخرى ، بعد إقفارها من الزبائن .

* * *

في مساء ذلك النهار لازم الأب فيانّيه الجثوّ أمام القربان طويلاً : ((أيّها السيّد ، لقد رفعتَ الصليب عن كتفيّ . فهل أشحتَ ببصرك العطوف عني، إذ لم ترني أهلاً لحمل ذلك الصليب مدّة أطول)) ؟

و ازدهت كنيسة أرس ، في الأيّام اللاحقة بوشاح جديد : فقد جلب الأب فيانّيه من مدينة ليون لوحة رائعة تمثّل السيّد المسيح بعد جلده لابساً ثوبه الأرجوانيّ الملطّخ بالدم و البصاق ، و بيلاطس يقدّمه للشعب الثائر قائلاً : ((هذا هو الرجل)) .

فتهاوت ركبتاه إلى الحضيض أمام هذه اللوحة طوال ساعات ، و يداه مرتفعتان إلى المسيح المهان المتألّم ! ..

* * *

من سنة **1828** إلى سنة **1830** :

جاءت يوماً إلى أرس جماعة من ستّة عشر سائحاً فرنسيّاً ، من مختلف الطبقات الشعبية ، ليطّلعوا على منجزات الأب فيانّيه ، ويقفوا عن كثب على حياته وفضيلته .

وكان بين الجماعة كاهن ومراسل صحفيّ . فبحثوا عنه في الأنطش والكنيسة فلم يعثروا عليه . أخيراً ظفروا به مؤتزراً ، وهو مشمّر عن ساعديه ، والعرق يتصبّب منه ، يقلب الكلس والرمل برفشه ، وإلى جانبه طائفة من عمّال القرية يساعدونه في معظمهم مجّاناً . إنه يروم أن يرفع بحذاء مدرسة العناية بناء جديداً آخر لضمّ عدد وافر من الفتيات اليتيمات أو المهملات .

عندئذ تقدّم منه الصحفيّ : ((أأنت الأب فيانّيه ، خوري أرس)) ؟

- أجل .
- أصحيح أنك لا تأكل غير البطاطا المسلوقة الباردة ؟
- لا . أغتذي من كلّ شيء تقريباً .

في الواقع كان الأب أثناء تلك الحقبة يتناول طعامه نظير كلّ الفتيات في بيت العناية ، فيجيز لنفسه كأساً من الحليب صباحاً ، بإيعاز من سيادة المطران ، حفاظاً على صحّته .

و تابع الصحفيّ يطرح أسئلته : ((يقال إنك لا تنام)) .

- غير صحيح ، إلاّ عندما يحول الخطّاف دون نومي .
- الخطّاف ؟ مَن هو ؟

فأجاب أحد العاملين : ((هو الشيطان)) . فثار عند ذاك تعجّب الصحفيّ : ((أما يزال في القرن التاسع عشر شياطين تجول في الفضاء)) ؟

ثم تابع : ((و يقال أيضاً إنك تأتي المعجزات . أيمكنني ، يا حضرة الخوري ، ان أُسائلك : ((هل أنت تصنعها حقّاً)) ؟

- أجل .
- إذن أنت تصنع المعجزات ؟
- لا . بل قلت لك إن بإمكانك طرح هذا السؤال عليّ .

لو كان بمقدوري إجراء العجائب لما وجدتني في حومة العمل ، أكدح طوال النهار .

ثمّ التفت الأب إلى الزائرين : ((لا نضيعنّ الوقت . ألا ادخلوا الكنيسة في الحال ، فأسرع إلى سماع اعترافكم)) .

وهمس أحد العاملين في أُذن الصحفيّ : ((هو صانع معجزات عديدة ، ولا سيّما في ((بيت العناية)) . فانطلق الصحفيّ و راح يتسقّط الأخبار من فم المعلّمة كاترين لاسّانيو : ((أخبريني يا آنسة عن معجزات كاهنكم)) .

- هو كلّه معجزة . وهك مثالاً واحداً ، حسماً لإضاعة الوقت : ((منذ أيّام لم يعد في المستودع حبّة قمح . فهرعنا إلى الأب لإعلامه بالواقع الأليم ، فاكتفى بالقول : ((اذهبن يا بناتي و اكنُسنَ المستودع جيّداً)) .

فمضت الطاهية جانّ شانيه متسلّحة بمكنستها ، وقد اعتادت منذ زمن بعيد أن تنال كل شيء بانقيادها لأوامر الأب . ولم تكد تفتح باب المستودع حتى اصطدمت عيناها بكومة كبيرة من القمح الذهبيّ اللون .

- ولكن ، ربّما كان الأب قد حمل إلى المستودع هذه الكومة خِلْسة .
- مستحيل ! لأن طريق المستودع هو دائماً نصب أعيننا ...

* * *

في هذا الوقت كان الأب جان ماري يستمع إلى اعترافات الوافدين : قال لأحدهم وهو مزارع : ((ثمّة خطيئة تسعى في إخفائها))

- وما هي ؟
- إنك تشوب الحليب بالماء .
- أجل ... أجل .

وقال لسيّدة متبرّجة بكلّ ألوان الزينة ، تغالي في تجميل ذاتها : ((خلّصي نفسك المتهوّرة في البهارج العصريّة . فيا للخسارة إن أضعتِ نفسك المفتداة بدم المسيح)) .

وجاء دور الكاهن فأبدى شكاته أمام الأب فيانّيه : ((كنيستي فارغة ، ورعيّتي بعيدة عن الله و واجباتها الدينيّة)) .

- هل صلّيت من أجلها و ارتحت إلى الصيام و التقشّف والإماتة ؟ إصنع ذلك فتفيء رعيّتك إلى الله .

ولاحظ الأب أن رجلاً من المدينة منتصب أمام الباب ، ارتسمت على محيّاه أمارات الضجر والفتور ، فترك كرسيّ الاعتراف واقترب منه : ((منذ كم سنة لم تعترف يا ابني)) ؟ فأجاب الرجل باضطراب و وجل ، وقد فوجئ بهذا السؤال : ((منذ ثلاثين سنة)) .

- لا بل منذ ثلاث وثلاثين ، أي منذ أن احتفلت بالمناولة الأولى داخل مستودع للأقمشة في مدينة ليون .
- صحيح . ولكنّي الآن لا أومن بشيء .
- إعترف أوّلاً فيرجع إليك إيمانك المفقود .

و دام اعترافه عشرين دقيقة . ثمّ نهض و أضواء سماوّية منبعثة من عينيه ، فاستطاب الصلاة أمام القربان المقدّس وقلبه مشتعل حبّاً بالفادي الإلهيّ .

* * *

أتته يوماً الطاهية جانّ شانيه ، والهمّ معتلج في صدرها : ((لا طحين لدينا يا أبتِ سوى حَفْنة لا تُغني ، ونحن بحاجة إلى كيس مليء كما تعلَم)) .

- أُعجني هذه الحفنة ، و اتّكلي على الله .

و امتثلت جانّ الأمر . و يا لدهشتها عندما رأت المعجن يفيض بالعجين ! .. فقال الرب : ((لا شكّ أن الله رحيم يهتمّ بفقرائه)) .

وحصل الأب فيانّيه على ذخيرة للقديسة فيلومينا الشهيدة ، فضمّها إلى صدره بشغَف ، وبنى لها خلف الضلوع هيكلاً وفي كنيسته معبداً .

وكان الجناح الذي رفعه لليتيمات والفتيات المهملات قد اكتمل بناؤه ، فغدا يزخر بأفواجهنّ النيّرة .

* * *

من سنة 1831 إلى سنة 1840 :

ذاعت شهرة القرية الصغيرة أرس وقديسها الخوري في كل أنحاء فرنسا ، فالنساء والفتيات يتحدّثن عنها بإعجاب وهنّ يفتلن المغازل ، والفقراء في أكواخهم والأغنياء في ردهاتهم يتداولون أخبارها باعتزاز وحماسة .

و ازداد تدفّق السيّاح بلا انقطاع على هذه القرية ، فكان الأب فيانّيه يقضي كل يوم ساعات عديدة في بيت الاعتراف . فإذا حان وقت إلقاء الدرس الدينيّ في مدرسة العناية ، أفلت بصعوبة مخترقاً الصفوف المنتظمة المحاصرة كرسيّه ، ومضى بخطى سريعة إلى تلميذاته . فيتبعه عندئذ حشْدٌ من السيّاح إلى المدرسة ، و يتجمّعون تحت النوافذ ليلتقطوا كلماته .

و شُيّد في تلك الآونة فندق كبير ، دُعي فندق ((السامريّ الرحيم)) ، لإيواء السيّاح المضطّرين إلى المبيت في أرس .

و راح الأب يخطّط في خاطره لبناء مدرسة أخرى للبنين كما للبنات ، تسهم في إعلاء الثقافة والتطوّر الصالح المحيي .

* * *

وحدث أن طارت شهرة الأب كذلك إلى صفوف الكهنة في هاتيك الربوع ، فراحوا يترسّمون خطاه في مضمار الفضيلة ، ما عدا البعض منهم ، فقد عضّهم الحسد في الصميم .

من بين أولئك الحسّاد كاهن شابّ انتفخ كبرياء و صلَفاً ، هو خوري بلدة امبريو ، الأب بورجون . طفق ينتقد الأب فيانّيه ، ويظهره للعيان قليل الذكاء والفطنة ، ذا ثقافة رقيقة الجانب ، يعتورها الفراغ الهائل .

ولم يستطع ضبط أعصابه ، فكتب إلى خوري أرس رسالة جاء فيها : ((يدعونك قديساً في كلّ مكان تقريباً . ومع هذا ، فإنّ البعض ممّن يزورونك لا يتهدون إلى الصواب . عليك أن تخفّف

قليلاً من غليان غيرتك على الجموع ، وإلاّ أُلجئنا إلى مفاتحة سيادة المطران بأمرك . كيف تجرؤ على سماع الاعترافات ، وأنت لم تنعم بزاد بسيط من علم اللاّهوت)) ؟

قرأ الأب جان ماري الرسالة بارتياح ، وابتسم راضياً . ثمّ أخذ الورقة وكتب بهذا الأسلوب .

((أيّها الأخ العزيز الفاضل : أُحبّك لأسباب كثيرة ! فأنت الوحيد الذي تفهّمني جيّداً . بما أنك تنازلت بصلاحك ومحبّتك فوجّهتَ إلى نفسي التفاتة طيّبة ، أسألك مساعدتي للحصول على النعمة التي أسعى وراءها منذ زمن بعيد ، وهي أ، يخلفني آخر في مركز لا أستحقّه ، فأنعزل وحيداً في زاوية صغيرة لأبكي حياتي الحقيرة. آه ، كم عليّ من ديون لربّي تستدرّ فيضاً من أعمال التوبة والتفكير ، وفيضاً من الدموع !

أشكر لك بصدق نصائحك الصالحة . فأنا أعرف حماقتي وعجزي . إذا حصل أناس من الرعايا المجاورة على الأسرار المقدّسة عندي ، ولم يعودوا إلى ديارهم مهتدين ، فذلك ممّا يفعمني ألماً وحسرة .

أرجوك رفع الظُلامة إلى سيادة المطران ، فهو ، على ما آمل ، يعيّن عندئذ خلفاً لي ، مشفقاً عليّ . صلّ من أجلي ، أبتِ العزيز ، حتى ينيلني الله النعمة فيصدر عنّي شرّ أقلّ ، وخير أكثر .

حافظُ جميلك ، جان ماري فيانّيه

خوري أرس الحقير .

* * *

في ذلك النهار حمل الأب بورجون الرسالة ، وعرضها على كاهن وقور من أصدقائه : ((هات أخبرني أيّها الصديق ، أما يتهكّم بي خوري أرس في هذه الرسالة)) ؟

- لا ، يا صديقي . ما هذا بتهكّم أو تواضع مزيّف . إن خوري أرس مُجدّ في ما كتب ، وليس هازلاً . لو كنت مكانك لما تأخّرت لحظة في طلب الصفح .

ولم يتردّد الأب بورجون ، بل ذهب توّاً إلى أرس ، وارتمى على قدمي الأب جان ماري ، سائلاً المغفرة : ((لقد خطئت أمام الله و أمامك . فاغفر لي حسدي و أنانيتي و كبريائي)) .

فسارع الأب فيانّيه إلى إنهاضه : ((أنا مدين لك ، لأنّك فتحت عينيّ ، فأطلعتني على ...

- بل أنت فتحت عينيّ . لقد غشّاهما الغرور والخداع ، فلم أعد أرى ما أنا عليه من مفاسد ومظالم . ولكن ، هل أنت مصرّ بعد على اعتزال العالم ؟
- هذه أُمنيتي منذ القِدَم ، أن أخدم ربي في الخفاء والزهد .

عندئذ دخل أحد خدّام المذبح الصغار وقال : ((أبتِ ، الناس متراصّون في الكنيسة ينتظرونك للاعتراف . هل أعلمهم بقدومك)) ؟

- أجل ، في الحال .

ثمّ التفت خوري أرس إلى الأب بورجون : ((أشعر بمسؤوليّة كبرى يرزح تحتها كاهلاي ، كلّما جلست على كرسيّ الاعتراف)) .

- أذكرني في صلاتك أبت ، عسى أن يهبني الله قبساً من تضحيتك و فضيلتك .

* * *

وكانت الرسائل تتكدّس على مكتب سيادة المطران ديفي ، أسقف أبرشيّة بيلّي ، توسع الأب ذمّاً وتحقيراً و انتقاداً ، فيهملها سيادته ، لأنه على بيّنة من أن الكهنة ، كاتبي هذه الرسائل، قد خامرهم الحسد المؤذي .

وعند اختتام رياضة روحيّة في مدينة تريفو ، جمع سيادة المطران الكهنة حواليه للتباحث ، فأجلس خوري أرس بقربه مظهراً له محبّة و تقديراً خصوصيّاً .

فنال الحسد من أحد الكهنة الحاضرين ، وقال بصوت مرتفع قليلاً ، يهدف به إلى إسماع سيادة المطران : ((أنظروا خوريّ أرس كم هو مهملٌ مظهره الخارجيّ . فهو يلبس الثوب الأسود دون زنّار)) . فامتعض سيادة المطران من هذا التعليق المجرّح . وأجاب عميد الكهنة بلا مواربة : ((إن خوري أرس بلا زنّار لهو أفضل من كاهن آخر يتنطّق بالزنّار)) ! ..

فوافق سيادته على الفور : ((لقد أصبت الهدف يا حضرة العميد)) . ثمّ انفرد الكاهن المتجنّي في زاوية ، وأنّبه على تهجّمه الخالي من التفهّم والمحبّة . فحاول الكاهن تبرير نفسه : ((أما تعلم يا صاحب السيادة أن الأب فيانّيه جاهل يفتقر إلى العلم الصحيح في مضامير الفلسفة واللاهوت)) ؟

- لست أدري هل هو جاهل ، ولكني على يقين أنه مُشْبَع من أضواء الروح القدس . تقولون : ((مجنون هو)) ! فيا ليت جميع الكهنة ينعمون بذرّة واحدة من جنونه ، جنون الحبّ والتضحية والسخاء ! ..

* * *

وبلغت سنة 1840 الذروة في تدفّق السيّاح إلى أرس ، من كل أرجاء فرنسا ، ليروا الخوري القديس ويعترفوا له بخطاياهم .

وفي هذه السنة كذلك ازدهت مدرسة البنين الجديدة بالطلاّب ، فشملها خوري أرس بعطفه وعنايته وتضحياته مثلما شمس مدرسة البنات .

ولكم كان يتوق بكلّ جوارحه إلى ساعات انفراد و تأمّل وصلاة ، لِما يتنازعه من أعمال راعويّة كالتعليم المسيحيّ ، و زيارة المرضى في المزارع النائية ، والكرازة ، وحفلات العماد ، و تزويد المنازعين بالأسرار الأخيرة ...

ولذا راح ينهض قبل انبلاج الفجر من فراشه ، إذا تهيّأ له أن ينام هجعة او هجعتين ، فيحيي ما تبقّى من حواشي الليل الأخيرة ، ضائعاً في الله ، جاثياً أمام القربان المقدّس .

و انساق يوماً إلى هواه ، فانتصب على قدميه نحو الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وبدل أن يتّخذ طريق الكنيسة كالمعتاد ، خرج من قريته أرس ، وهام على وجهه ينشد العزلة والنُسك والتزهّد .

هل سيدوم ابتعاده عن رعيّته يوماً أم أيّاماً أم سنين ؟ ليس يدري ... و إذا به يلتقي صليباً عالياً منتصباً على قارعة الطريق ، فيلقي جبينه على جذع الصليب ، ويغوص في الصلاة .

و أحسّ بسكون غريب قدسيّ يغمره ، وبصوت الحبّ الأزليّ يخاطبه منبعثاً من قلب ذلك السكون : ((إلى أين ، يا جان ماري فيانّيه)) ؟

- أريد الحصول عليك في الوحدة أيها السيّد . أرجوك أن تخلّي لي السبيل .
- لا تبحث عني طويلاً في الانفراد ، يا جان ماري فيانّيه ، لكن في النفوس التي يقودها حبي إليك . فنفس واحدة لها وزنُها في كفّة الميزان أثقَل من كل الصلوات ترفعها إليّ في الفلوات التي تهيم إليها . إرجع إلى كنيستك ، فالنفوس الجريحة تنتظر فيها **السامريّ الرحيم** .

فنهض خوري أرس ، وقد أدرك أنّ ((الخطّاف)) يروم إقصاءه عن العمل الخلاصيّ المحيي ، وعاد من حيث أتى .

و ركع أمام القربان المفدّى ، شاكراً لله دفقة النور التي جاد بها عليه ، فمزّقت حُجب الظلام الدامسة ...

* * *

من سنة 1843 إلى سنة 1859 :

قضى الأب فيانّيه بياض يوم من أيّام أيّار في سماع الاعترافات ، والكنيسة مليئة بالمؤمنين القادمين من كل الأقطار . ولم يستطع الخروج من بيت الاعتراف إلاّ وقت الاحتفال بالصلاة مساء . فمشى إلى المنبر مترنّحاً بخطى وئيدة ، عند انتهاء الصلاة ، و أخذ يتكلم عن أمجاد مريم العذراء .

ولم يفُه بالجُمَل الأولى من العظة حتى انتابه سعالٌ شديد ، فاحمرّ وجهه ثمّ استحال إلى قتام ، و تزايل هيكله في موقفه تزايُل الشجرة ضُربت بالفأس ، وهوى إلى أسفل جُثّة هامدة ، بين ارتياع الحاضرين و تهويل الحدَث .

فخفّ إليه معلم مدرسة البنين ، جان برتينان ، وحمله بين ذراعيه وسار به إلى غرفته في الأنطش فألقاه على سريره الحقير ، وهو منهار القوى ، فاقد الوعي .

وظلّ على هذه الحال عدّة أيّام يترجّح بين الحياة والموت ، لا يصحو من غيبوبته قليلاً إلاّ ليعود إلى الضياع وفقدان الحسّ ، والمؤمنون يلازمون الكنيسة بازدحام شديد ، جاثين على الأرض ، يضرعون إلى الله بحرارة طلباً للشفاء العاجل .

وكذلك البنون والبنات في المدرسة ضاعفوا الصلوات وألوان الإماتات ليستعجلوا العافية إلى أبيهم الروحيّ المحبوب ، والأهلون في بيوتهم أضاءوا الشموع وعقدوا النذور ورفعوا الابتهالات حرّى من أعماق قلوبهم ... وبات الأمل في استعادة الحياة والعافية ضرباً من المستحيل ، والأجل الجاثم الرهيب لا مناص منه ، رغم جهود الأطبّاء الأربعة الذين استقدمهم الكونت دي غاريه من ليون . فقد نفضوا يدهم في النهاية من خلاصه مصرّحين : ((هو التهاب قويّ ألمّ برئتيه الذاويتين ، فلا نجاة)) .

وكان الأب أمام أنظارهم يختلج اختلاجة المصعوق ، تحت رطأة الحمّى .

وبرّح الشوق بالجماهير المتألّبة لرؤية الأب القديس ، فتدفّع العديد منهم ، رغم الموانع الشديدة والإجراءات المحكمة ، تدفّع الأمواج على الشاطئ ، ليقع بصرهم ولو قليلاً على الطريح المُعنّى. وأمّا هو فكان يردّد ، إذا ما عاد إليه بصيص من الوعي والحياة بين الفينة والفينة : ((يا إلهي ، كم من ضجّة حول كاهن مسكين ! ولكن لا بأس في صلاتهم من أجلي . أودّ أن أعيش بعدُ بضع سنين ، و إلاّ وصلت أمام ديّاني العادل صفر اليدين ، إذ لم أعمل إلى الآن سوى القليل من الصلاح)) .

فأجاب أحد الكهنة المتحلّقين من حوله ، القادمين من القرى المجاورة ، وهو الأب بلاندون : ((آه ، لو كان بمستطاعي أن أتشبّث بثوبك الأسود ، أبت فيانّيه ، إذن لخلصت بارتياح إلى السماء)) . فنظر إليه الأب جان ماري فألفاه ضخم الجثّة مكتنزاً لحماً وشحماً ، فقال بابتسامة: ((إيّاك والتشبّث بثوبي ! هو متفتّت رَثّ لا يقوى على الثبات ، ولا مجال لنا كلينا معاً للدخول من باب السماء الضيّق)) ! .

* * *

وكان بين الجمع المتدّفع على باب الأنطش ، في الادي عشر من أيّار ، امرأة خرساء انعقد لسانها منذ سنين عديدة إثر التهاب في الدماغ ، وها هي الآن تروم الحظوة برؤية الأب القديس، و بثّه أشجانها . فشقّت لها طريقاً ، ممسكة بلوح صغير كتبت عليه بغيتها ، ودفعت اللوح إلى المعلّم جان برتينان .

فتلا المعلّم على مسمع من الأب في لحظة من فترات صحواته ، ما كتب على اللوح . عندئذ قال الأب للمسكينة المتلهّفة : ((إن أدوية الأطبّاء يا ابنتي بلا جدوى . لكن الله يريد شفاءك . فاذهبي و ألقي لوحك هذا على مذبح القديسة فيلومينا ، فهي كفيلة بتحقيق أُمنيتك)) .

ومضت كلودين ، ومحت ما كتبته على اللوح مسطّرة رغبة أخرى : ((شفاء الأب فيانّيه)) . وفيما هي تناجي القديسة بالتياع ، محاولة الإفصاح بلسانها المنعقد ، انفكّ عقال ذلك اللسان فجأة ، فصاحت بصوت حليّ وضّاح : ((لا أنا ، بل هو ! أريد شفاءه)) ! .

فذهل القوم المحتشد عندما رآها تتكلّم ، وقد كان من قبل واقفاً على مرضها ، وسبّح الله مشيداً بقداسة الأب فيانّيه وتواضعه ، وانطلقت الأجراس تجلجل بابتهاج معلنة الخبر العجيب .

* * *

وكان الأب في هذه الأثناء يذوي شيئاً فشيئاً ، على نار شديدة ، فصرّح الطبيب : ((لم يبق سوى دقائق معدودات ، فالقلب لم يعد يجود إلاّ بضرباته الأخيرة الخافتة)) . فاستفاق الأب في هذه اللحظة و ابتسم متمتماً : ((فيلومينا)) ! وغاب عن وعيه .

و انزاح النهار ، وبدا الأب في تحسّن مستمرّ و إشراقة محيية فقال : ((جرى في داخلي انقلاب عجيب . لقد شفيت)) !

و وصل الطبيب باكراً ، فهزّ رأسه في دهش كثير ، متبيّناً التحسّن المفاجىء ، فصرّح : ((لا أستطيع شرح ما حدث)) .

فتابع الأب فيانّيه باسماً : ((معجزة يا حضرة الطبيب)) !

- أجل معجزة . لقد زال الخطر .

فذاع خبر الشفاء في القرية بطرفة عين ، وأخذ المؤمنون في الكنيسة يرنّمون مبتهجين ، والأجراش تُقرع ، وأمام تمثال الشهيدة الفتاة فيلومينا تكدّست باقات الزهور ...

و أراد الأب ، في العشرين من أيّار ، أن يحتفل بالقداس لأوّل مرة بعد مرضه ، الساعة الثانية بعد نصف الليل ، إذ لم يكن قادراً على الصيام حتى الصباح . فاتّكأ على ذراع جان برتينان وقدّم الذبيحة الإلهيّة في معبد القديسة فيلومينا .

وحانت من الأب فيانّيه في قلب ذلك الليل التفاتة مشبعة بالأسف والحسرة عند رؤيته بيت الاعتراف محاصراً ، يحيط به جمع غفير من المؤمنين . فاعتذر لوهاء جسمه ، و وعدهم بالانصراف إلى خدمتهم قريباً .

ولم يتمكّن من مزاولة عمل الرحمة في سرّ المغفرة إلاّ بعد خمسة عشر يوماً ، رغم توصيات الطبيب .

* * *

وشاءت العناية الإلهيّة أن يعمّر الأب جان ماري بعد مرضه العصيب ستّ عشرة سنة تجلّت حافلة بالمبرّات : فالحشود المتقاطرة من كلّ جهة على ازدياد مطّرد ، تنظّم التطوافات كلّ يوم، حاملة بخشوع وشغف صُوَر الأب القديس ، وقرية أرس أضحت في تلك الحقبة معبداً فسيح الأرجاء ، تتصاعد منه الصلوات مضمّخة بعبير المحبّة والتقوى والإيمان الوطيد ، وثّمة خمسة فنادق ارتفعت لاستقبال المؤمنين المضطّرين إلى المبيت .

وجمع طبقات الشعب الفرنسيّ تمثّلت في أرس ، من شخصيّات رسميّة مرموقة ، وفنّانين ، وعلماء ، وكتّاب كبار ، وصحفيّين ، وأساقفة و نبلاء ...

وكان الأب المتفاني يستفيق أكثر الأحيان الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، فيلازم كرسيّ الاعتراف ملازمة المتعبّد المحبور للزهد والصلاة ، حتى ساعة متأخّرة من الليل المقبل ، لا يغادر مركز الرحمة والغفران ، إلاّ لتناول لقمة عاجلة ، أو لإلقاء درس التعليم المسيحيّ ، أو للصلاة الجماعيّة مع الشعب مشفوعة بالكرازة . وكان الناس ينتظرون دورهم للاعتراف زهاء ثلاثة أيّام أو أربعة .

وكم من مرّة حُمل من بيت الاعتراف الصغير فاقد الوعي ، أو متهالكاً خائر القوى ... وقد وهبه الله معرفة السرائر ، وما يجول في الضمير ، فيؤنّب تارة و يستحثّ أخرى .

كما أنه أُعطي مِنْحة كشف الغيب وإماطة اللثام عن المجهول : قصدت يوماً قريةَ أرس سيّدةٌ من أعيان باريس انتحر زوجها الضابط بزجّ نفسه في نهر السين ، إثر فقدانه منصبه في الجنديّة. وكان حزن زوجته من بعده شديداً عارماً ، تواثبها الظنون والمخاوف على مصيره الروحيّ والأبديّ .

و إذا بالأب فيانّيه يمرّ من أمامها بعد فراغه من الصلاة الجماعيّة ، مرور النسيم البليل وسط الهجير ، وهي تحاول عبثاً الاتصال به منذ يومين فلم تفلح لشدّة ازدحام الناس . فوقف في الحال إزاءها ، و انحنى إليها هامساً : ((لقد نجا زوجك في الدقيقة الأخيرة . العذراء أنقذته من الهلاك الأبديّ مثيرة في نفسه عاطفة ندم ، قبل أن يقضي نَحْبه ، لأنكما في ما مضى قد رفعتما السلام الملائكيّ إلى الأمّ السماويّة أمام إيوقنتها)) .

- أجل ، أجل ! أذكر الصلاة والإيقونة . شكراً أبتِ لقد فرّجتَ كرْبي .

قال لها الأب ذلك دون سابق معرفة لها ولزوجها المتوفّى .

* * *

وماذا نقول عن المعجزات ؟ تناثرت من يديه تناثر الورود والريحان ، فوهب البصر للعميان والسمع للصمّ و النطق للبُكم و تشديد الركب للمخلّعين ، محسناً في كلّ ما صنع ، وناسياً نعمة الشفاء عن تنازل وتواضع إلى الشهيدة الصغيرة فيلومينا ، إذ كان يوجّه إليها المرضى والمعذّبين.

لننظر إلى هذه المعجزة التي جرت سنة 1856 ، على سبيل المثال : إلتفت الأب جان ماري، وهو محاطٌ بالجموع ، إلى امرأة تحمل طفلها المشلول ، وقال : ((طفلك كبير السنّ ، فلا يجوز حمله)) .

- إنه مشلول ،أبتِ ،من خصره إلى ما أسفل ، فلا يستطيع الانتصاب والسير خطوة واحدة .
- سيستطيع . ثقي بالله و بالقديسة فيلومينا . ما هو اسمك يا بنيّ ؟
- جان ماري يا حضرة الخوري .
- نحمل إذن كلانا اسماً واحداً .

و أضافت أُمّه : ((يدعى جان ماري ديفولويه)) ، ثم وضعته على الحضيض بتُؤدة ، وتابعت: ((ترى ، أبت ، أنه لا يقوى على الانتصاب . فقد انهار أمام عينيك)) .

- لا ، لا تحمليه ثانية . إمشي معه حتى مذبح القديسة . وجرّر الطفل قدميه ، وأُمّه تسنده ، إلى أن بلغ التمثال العجائبيّ . ثمّ جثا على ركبتيه دون أن تحتاج أُمّه إلى إمساكه ، وبقي طويلاً بتأمّل وجه القديسة ، و دموع الأم تنهمر بلا توقّف . أخيراً قال الطفل لأمّه : ((جائع أنا)) .
- حسن يا بنيّ . سأحملك إلى الخارج .
- ولكني أستطيع المشي ، المشي !

ونهض الطفل وسار خطوات دون الاتكّاء على أحد . فأطلقت أُمّه عندئذ صيحة ، وقد اصفّر وجهها كأنما أُصيبت بإغماءة ، وهتف القوم المجاورون لهما : ((معجزة ! معجزة)) ! و ردّدت الكنيسة بأجمعها أصداء الفرح والنشوة : ((معجزة ! شُفي الولد)) !

وتابع الولد طريقه ، وهو في الثامنة من عمره ، سائراً إلى جانب أُمّه . و تحلّق حول الأمّ وابنها مواطنون لهما من مدينة سان رومان الصغيرة ، وطفقوا يؤكّدون أمام الناس أجمعين أنهم يعرفون جيّداً الطفل المشلول المعافى فجأة بشفاعة الأب جان ماري فيانّيه .

ذلك لا يعني أن كلّ المرضى كانوا يشفون ، ولكنهم كلهم كانوا يؤوبون إلى ديارهم فرحين راضين بما قسمَ لهم الله في هذا الوجود ، ناهيك بالاهتداءات النفسيّة التي لا تحصى ، وهي في نظر الكثيرين أهمّ خطورة و أشدّ تألّقاً .

وكم من مرّة حبس الأب فيانّيه المعجزة عن بعض المرضى لخيرهم الروحيّ : صادف يوماً فتاة رائعة الجمال عمياء ، فقال لها : ((بإمكان القديسة فيلومينا أن تستمدّ لك الشفاء إن أردت : أؤكّد لك ذلك ولكنّك تجازفين بخلاصك الأبديّ ، وأنت منفتحة العينين . أمّا إذا بقيت عمياء فأنا أكفل لك مقرّاً مجيداً في السماء)) .

فلازمت الفتاة الصمت حيناً ، ثمّ أجابت بجرأة وهي ممسكة بيد القديس : ((أريد الابتهال إلى القديسة فيلومينا لتساعدني على احتمال مصيبتي صابرة)) .

فباركها الأب وهو يبكي .

و أُخبر عن فتاة أخرى مصابة بالسلّ ، تمجّ الدم من فيها بغزارة ، وليس بمقدورها الاقتراب منه لشدّة زحمة الجماهير ، فأجاب : ((بلّغوا إلى هذه الفتاة أنها عزيزة في عين الله . فالصليب الثقيل على كاهلها سيعينها على ارتقاء السماء)) .

فلمّا وصلت كلمات الكاهن إليها أهوت رأسها على الوسادة ، مغلقة عينيها . وبعد قليل فتحتهما وقالت : ((لتكن مشيئة الربّ)) !

* * *

وكان الأب جان ماري في أواخر أيّامه ينقل قدميه متحاملاً ، ويداه الطاهرتان تهتزّان اهتزاز ورق الخريف ، وقواه الجسديّة تنحلّ و تتلاشى ساعة بعد أخرى ، حتى أسلم الروح بين يدي خالقه ، مكلّل الهامة بإكليل المجاهدين الظافرين الأبرار .

محاطاً بلفيف الإكليروس والشعب الذي محضه الحبّ والتقدير ، في الخامس من آب ، الساعة الثانية بعد نصف الليل ، سنة 1859 .

و أبّنه سيادة المطران دي لانغالوري ، أسقف أبرشيّة دي بيلّي مشيداً بقداسته . و ممّا جاء في التأبين : ((اعلمْ جيّداً أيها الخوري العزيز المكرّم أن أبهى نهار وأحبّه إليّ هو ذاك الذي تسمح لي فيه الكنيسة المنزّهة عن الخطأ أن أشيد بقداستك علناً و أترنّم في تمجيدك : ((هلمّ أيّها العبد الصالح الأمين ! ألا ادخل فرح ربّك)) .

في الرابع عشر من آب ، وُوريت جثّته الثرى في صحن كنيسة أرس ، وقد نقشت هذه الكتابة على لوحة رخاميّة تحت كأس حفرت في حجر القبر :

هنا يرقد جان ماري باتيست فيانّيه

خوري أرس

وجاء صوت البابا بيّوس الحادي عشر ، في الحادي والعشرين من أيّار سنة 1925 مِصْداقاً لأمنية أسقف دي بيلّي ولأماني الشعب المسيحيّ أجمع ، معلناً قداسة **خوري أرس** . وفي رومة، وفي أرجاء العالم كلّه ركع الملايين من المؤمنين مبتهلين : ((أيها القديس جان ماري فيانّيه ، صلّي لأجلنا)) !